٢٢

مجلة
روايات أحلام

قلبك حجر

مغرور!

www.elromancia.com

مرمورية

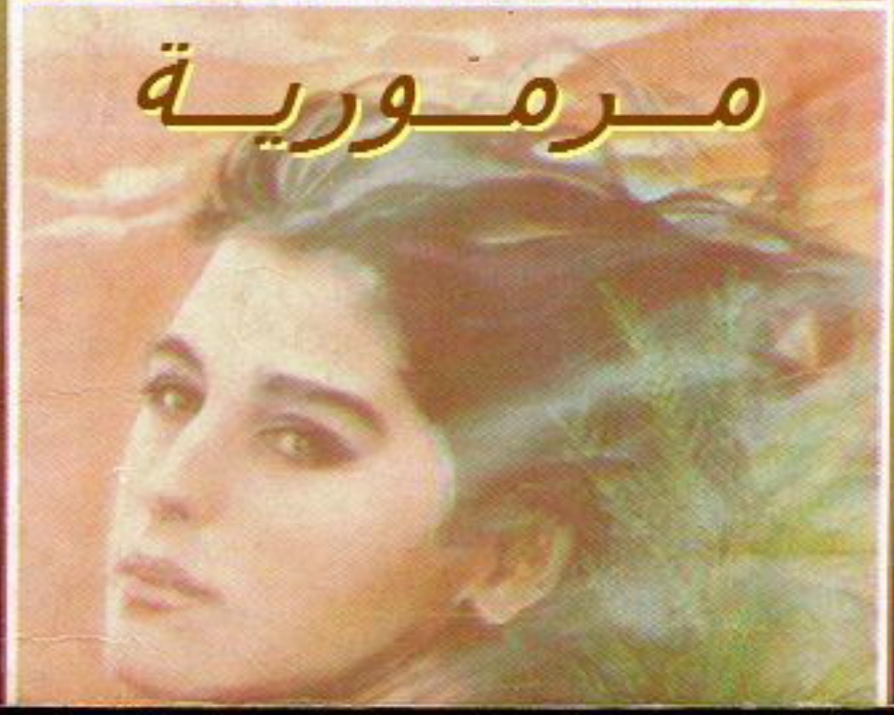

مجلة روايات أحلام

مغرور!

ـ أنت لا تريد زوجة.. بل عبدة!

ـ صحيح، لكنني أحتاج إلى عقد الزواج، فهو قانوني».

شهقت نيكول عندما سمعته، ومع ذلك وافقت على الزواج من رجل تحوّل قلبه إلى حجر ونسيت شفتاه الابتسام. فقد كان البديل لها هو الجوع والتشرد في الشوارع مع ابن شقيقتها اليتيم.

ظنت نيكول أن كل ما هو مطلوب منها في هذا الزواج هو العناية بابنة مارك هاموند الصغيرة وتدبير منزله. لكنها كانت مخطئة، فإذا كان مارك رجلاً خالياً من المشاعر، فهذا لا يعني أنه لا يملك أفكاراً أخرى.

١ ـ رجل دون قلب

رصعت النجوم الماسية مخمل السماء السوداء الدافئة الخالية من النجوم. لكن، كان هناك جيشان من الإثارة في الجو، وعيون الجموع المصطفة على ضفتي النهر في «ماديسون هات» منصبّة على الاحتفال الذي يجري فوق ماء النهر.

وقف رجل بين الجموع... لكنه لم يكن من المحتفلين... طويل القامة نحيلها. يقف بعيداً، تعابير وجهه متحفظة... تقاسيم وجهه الوسيم تقاسيم رجل نادراً ما يبتسم، أو كأنه رجل لا يجد سبباً للابتسام.

مرَّ مركب مزين بالألوان المبهجة تحت الجسر الحجري الضيق المستخدم للمارة. أنواره الساطعة تلمع لتشاهدها بوضوح الحشود المنتظرة كلها. ثم لم يبث أن سرت همهمة إعجاب عبر المشاهدين... فرفعت فتاة صغيرة، تقف قرب ذاك الرجل، عينيها الزرقاوين إليه بسرعة:

ـ انظر إلى هذه يا أبي... أليست جميلة؟

ـ أجل.

في رده المقتضب شيء من نفاد الصبر لكن الصغيرة أعادت اهتمامها إلى الاحتفال. انتقلت أنظاره من المركب إلى ابنته...

كم لها من العمر يا ترى؟ فلعن نفسه بصمت لأنه غير قادر على تذكر عمر ابنته، أعشر أم إحدى عشر سنة؟

مرت أنظار مارك هاموند على الجموع بازدراء... ماذا يفعل هنا؟ الناس اكتظّت جموعهم وامتدت رقابهم لالقاء نظرة على المراكب الطائفة أمامهم بينما يقدرون على البقاء في منازلهم حيث يشاهدون الحفل عبر شاشة التلفزيون.

- مشاهدة الاحتفال السنوي ليس كالمشاركة فيه.

هذا ما قالته له عمته، روز فريغسون متطوعة... أجل... عمته هي المسؤولة عن وجوده الليلة هنا... إضافة إلى تأنيب الضمير لإهماله ابنته غلينا لسنوات... لكن غلينا ليست مهملة كلياً، فهي لم تحرم قط من الملابس الجميلة أو من الأطعمة الفاخرة، أو المنزل. لكنه لم يرسلها قط إلى أية مدرسة بل عاشت معه منذ ولادتها... فماذا تريد طفلة أكثر من هذا منه؟

هذه الطفلة المنطوية الصموت ذات الوجه النحيل الحساس هي ابنته. ومع ذلك فهو لا يحس بعاطفة خاصة... إنه يهتم بها... قدر استطاعته... لكن ليس في قلبه دفء تجاهها يملأ فراغه الداخلي.

لوى فمه ساخراً وهو يعترف لنفسه أن هناك القليل القليل في العالم لا يضجره. فهو ولد وحيداً لا أشقاء له أو شقيقات، ورث عن عائلته أراضي زراعية شاسعة تمتد من سفوح تلال روكي جنوبي مقاطعة البرتا مروراً بنهر ستشوان وحدود مدينة مديسن هات ومن هناك تمتد مسافة طويلة في مقاطعة ستشوان

التي تغطي النهر... لم يُحرم شيئاً في طفولته أو في مراهقته المجنونة أو في ريعان شبابه... ها هو الآن في الرابعة والثلاثين... يعتقد أن كل مشاعره راضية مرضية، وأن الحياة لا تحمل إليه أوهاماً، لأنه جربها كلها.

منذ خمس سنوات، منذ وفاة والده فريد هاموند، أصبح وحده مالك مزرعة هاموند، واستثماراتها التي لا عدد لها. وأصبحت قوة سلطة هاموند تحت يده... فاعتاد على أن يأمر فيطاع.

علّمه والده، فريد هاموند، أن لكل رجل ثمناً مادياً أو غير مادي. ولطالما احترم مارك والده وأعجب به. لكنهما لم يكونا متقاربين. أما أمه فماتت وهو في السادسة، وليس له ما يذكره بها سوى صورة لها.

أما زوجته مورغان فقد تزوجت اسم هاموند، ولم يطل الوقت كثيراً ليدرك مارك هذا... والطفلة التي ماتت وهي تلدها، كانت تظنها الوسيلة الكافية لتثبيت رباط دائم مع سلطة وثراء هاموند. ومذكراتها التي كانت تكتبها قد ذكرت بصراحة أنها لم تحب مارك، بل ماله واسمه...

في الواقع، مارك لم يحب أحداً، حتى نفسه. ولا أحبه أحد. فغلينا حاولت كثيراً أن تحبه كما حاول هو أن يحب والده. ربما الشخص الوحيد الذي كان يهتم به، هو عمته روز. فعندما ماتت أمه، جاء فريد هاموند بشقيقته الأرملة إلى مزرعته لترعى ابنه، وقد رعته وبقيت عنده إلى أن اعتنت بغلينا كذلك.

www.elromancia.com

لكن هذا لن يستمر... في نهاية هذا الشهر، روز فريغسون ستغادر... مجازياً إذا لم يكن حرفياً. إنها قوية، متكبرة، تقول بصراحة ما في نفسها. ولقد تلقى مارك ما يكفي قبل أن يحضر ابنته غلينا إلى حضور الاحتفال هنا. كانت قد قالت له:

ـ لا أحب ما أصبحت عليه مارك... أنت بارد، خال من الإحساس، وأحياناً ظالم تجاه أحاسيس الناس. أنت تظهر عاطفة نحو الجياد أكبر من العاطفة التي تظهرها نحو ابنتك! لقد تحول قلبك إلى حجر. غلينا تحتاج إلى أبيها... لا إلى عمة عجوز... وإذا لم تستطع أن تكون ذلك الوالد الذي تحتاجه، فأحضر لها أماً... لن ترمي بعبء مسؤولياتك على كتفيَّ بعد اليوم... فقد أورثني والدك المنزل القديم قرب الجدول وخصَّني براتب شهري... وإلى ذلك المنزل سأنتقل في نهاية الشهر.

ولم يجادلها مع أنه يعلم أن باستطاعته استغلال الحب الذي تكنه له ولابنته لتغيّر رأيها... لكنه اعترف بينه وبين نفسه أن غلينا تستحق أن يكون لها أم.

جانيت قد تفي بالدور... فهو يجد صحبتها ممتعة مسلية. لكنه يعلم أنها لا تطيق ابنته... فالصهباء المغرية هي امرأة رجل لا ربة منزل... عندما ينتهي انجذابه الجسدي لها، كما حدث له مع معظم النساء اللواتي عرفهن، فإنها ستثأر من الصغيرة غلينا... لا... لن يتزوج من جانيت.

قطعة من الحلوى تطايرت من أحد المراكب فوقعت تحت

قدميه، فانحنت غلينا لتلتقطها، لكن اصابع صغيرة أخرى، امتدت إليها قبلها... والتفتت إليها عينان فيهما الأمل والتردد عبر خصلة شعر سوداء متدلية فوق جبين صبي.

مدّ يده ليكشف الحلوى الملفوفة بالورق:

ـ أهي لك؟

راقب مارك تحرك فم ابنته إلى ابتسامة رافضة... كما لاحظ ترددها في انتقاء كلمات قولها للصبي البالغ نصف عمرها.

ـ لا... خذها أنت.

بقيت اليد الصغيرة ممدودة والصبي يركز نظره على الحلوى:

ـ ناني تقول إن علي أن لا آخذ أشياء هي للآخرين... كما لا يجب أن آخذ أشياء من فتاة.

نظرت غلينا باستحياء إلى أبيها قبل أن تعود إلى وجه الصبي الرزين المتجهم:

ـ لقد وجدتها أنت... لذا خذها.

أمعنت عيناه البنيتان في وجهها لحظات، ثم أطبقت أصابعه على الحلوى وكأنها تحميها. احتفظ بها بضع لحظات فوق صدره وكأنها شيء ثمين ثم فتحها متأنياً. ثم وضع الحلوى في فمه:

ـ اسمي دايفي... ما اسمك؟

ـ اسمي غلين... وهذا والدي.

ردّ دايفي رأسه إلى الوراء لينظر إلى وجه مارك، فالتوى فم

www.elromancia.com

مارك تسلية بالتفحص الذي يتلقاه... وأعجبته نظرة الصبي الجريئة الصريحة التي لا يبدو عليها التأثر... وقال الصبي:

- ليس لي أب... لكنني يوماً سأحصل على حذاء «كاوبوي».

لم يبدو لمارك أنَّ للقولين علاقة ومع ذلك لهما علاقة وثيقة عند هذا الصبي كما يبدو... وتساءل ما إذا كان هو وغلينا سيكونان أقرب لو كانت صبياً. لكنه لا بد سيشعر بالتوتر من تطلبات الصبي الملحة. سمع ابنته تسأل:

- أحضرتك أمك إلى الاحتفال؟

أدهشه اهتمامها بالصبي... فلم تكن تظهر من قبل اهتماماً بالأطفال الذين تذهب معهم إلى المدرسة... هز دايفي رأسه:

- أحضرتني ناني... لكنني أظنها ضاعت.

فابتسمت غلين:

- أواثق أنك لست أنت الضائع؟

برزت تقطيبة صغيرة عند عقدة حاجبيه الصغيرين:

- لا أظن... فأنا أعرف أين أنا. ولا أعرف أين هي ناني. إذن فهي الضائعة.

جاء دور مارك ليعبس وهو يشاهد ابنته تنحني لامسة ذراع الصبي بحركة قلقة.

- صحيح... لكن أترى دايفي... ناني تعرف أين هي، ولا تعرف أين أنت، وأراهن أنها تظنك أنت الضائع.

فتنهد دايفي:

- ستجن غضباً مني مرة أخرى!

- أين شاهدتها آخر مرة؟

عرف مارك إلى أين ستقود اسئلة ابنته، ولم يرغب في أن يتورط بالبحث عن أم الصبي. فإذا ضاع فهذه غلطة أمه لأنها لم تنتبه له.

مد الصبي يده في اتجاهات مستديرة نحو أسفل الجسر:

- في مكان ما هناك... عطشت فذهبت تحضر لي الماء.

- وكان من المفروض أن تنتظرها.

وقع المزيد من غرته السوداء على جبينه وهو يخفض رأسه خجلاً، ويجيب بصوت كالهمس:

- أجل.

فقالت غلينا بصوت هادىء:

- اعطني يدك... ولنبحث عن أمك.

- غلينا!

كان صوت الأب أكثر حدة مما أراد لذا أخفض صوته... مع بعض الحزم:

- لن نذهب للتفتيش عن أم الصبي في هذا الحشد.

أحس أن في عينيها اتهامات حيوان صغير جريح:

- لن تتركه هكذا. إنه صبي صغير وحيد، يا أبي!

فرد دايفي بكبرياء:

- لست صغيراً إلى هذا الحد. سأصبح في السادسة قريباً.

أصمته مارك بنظرة باردة، والتفت إلى ابنته... فلاحظ أنها عادت إلى التقوقع من جديد... وإلى الامتعاض الذي بدا كالضباب في عينيها الزرقاوين... فتنهد:

www.elromancia.com

ـ اسمعي... سنأخذ الصبي إلى ذلك الشرطي. لا بد أن أمه اكتشفت ضياعه، وستبلغ الشرطة.

ـ دعنا نمضي بضع دقائق في التفتيش أولاً؟

ـ هذا ليس من شأننا... ولن نورط أنفسنا.

أحس بالتوتر لأن ابنته أجفلتها لهجته... يجب أن يعترف بأن عمته على حق فهو يؤلم الناس دون أن يقصد. فاللباقة لم تكن يوماً من خصائصه. فترك كتفها والتفت إلى الصبي:

ـ تعال... سنأخذك إلى الشرطي الذي سيساعدك على إيجاد أمك.

لكن دايفي تراجع، وامتدت شفته السفلى بغضب إلى الأمام:

ـ لكن الشرطي لا يعرف أين هي ناني!

نظر إليه مارك قليلاً ثم حمله بين ذراعيه، وتطلع في وجهه، فأعجب به... لكنه سرعان ما صرف النظر عنه، إنه لا يهمه بشيء... فاتجه بحدة نحو الشرطي ولحقت به غلينا تجرجر قدميها... ففكر مارك أن مجيئه إلى هذا الاحتفال كافٍ، لذا لن يورّط نفسه في أمر كهذا وإن إكراماً لها.

التفت اليد الصغيرة حول عنقه، بينما أخذ دايفي يراقب الجموع... ثم فجأة اشتد ضغط اصابعه الصغيرة:

ـ انتظر... ها هي ناني هناك!

التفت من ناحية اليد الممدودة فلاحظ بين الجموع امرأة تنظر حولها بذعر. بينما كانت تقترب، ارتفع حاجباه عجباً... إن أم دايفي لا تكاد تكون امرأة. ولو استطاع الحكم عليها،

لقال انها لم تكد تخرج من مراهقتها... ودايفي يؤكد أن عمره ست سنوات.

كانت الفتاة جذابة، أكثر من معدل الجمال العادي. رغم مظاهر الإرهاق والتوتر البادية على قسماتها رغم النظرة المذعورة، التي لم تكن وليدة ساعتها فقط بل وليدة أشهر.

ثم لمحت العينان اللوزيتان دايفي بين ذراعي مارك... فانتشرت ابتسامة ارتياح على وجهها الجميل وشفتيها الجذابتين... الجو المقدس الذي بدا كهالة من حولها اضاء شعلة الرغبة فيه... إلى أن تذكر الصبي بين ذراعيه... النساء متوافرات أمامه، دون الحاجة إلى الالتزام بأم وابنها.

سارعت إلى القول بصوت متهدج مبتسم:

ـ اوه... دايفي! أما طلبت منك البقاء قرب الجسر!

فرحة إيجاده سالماً كانت أكبر من أن تدفع نيكول للغضب الذي يجب أن يكون في مثل هذه الحالة... ملأت دموع الارتياح عينيها، وبدا عليها التعب، فمسحت الدموع بسرعة لتشكر الغريب.

توقفت أنفاسها وتصلب جسدها آلياً، عندما لاحظت نظرته الممعنة الجريئة بجسدها النحيل... نظراته الواثقة من نفسها تبلغ درجة العجرفة. فانطبع لديها للوهلة الأولى جاذبيته ووسامته التي رأت فيها قساوة تكاد تمحو كل أثر لها.

بدت عيناه الزرقاوان الحادتان تعريانها من كبريائها، فسارعت تقول لتبعد عنها هذا الإحراج:

ـ اود شكرك لأنك وجدت دايفي.

فهمس لها دايفد:

ـ أنت تشدين علي كثيراً.

كانت هذه طريقته ليقول لها إنه أكبر من أن تحمله... فتركته على مضض ينزل إلى الأرض لتمسك بثبات يده الصغيرة.

رد عليها مارك بصوت عميق أجش:

ـ لم يكن مشكلة لنا... كنا سنسلمه للشرطي.

صحيح... فهذا الغريب المتعجرف ليس ممن يورط نفسه في البحث عن ولي أمر طفل ضائع.

شد دايفد بيدها قائلاً:

ـ لقد رموا الحلوى من النهر... ووجدت قطعة، تركتني غلين آخذها... لا بأس في هذا؟ لقد أكلتها.

ـ غلين؟

تابعت أصابعه الصغيرة وهو يشير لها:

ـ هذه غلينا... وهذا والدها.

حركت العاطفة قلب نيكول... إذا كان الأب بهذا التحفظ والعجرفة... فلا عجب في أن يكون لهذه الفتاة ذاك التقوقع وتلك الحساسية المفرطة... فالفتاة تشرف على ذلك العمر المربك الذي تحتاج فيه إلى الطمأنينة والعناية... عندها تذكرت نيكول تماماً هذه السنوات التي كادت تحطم قلبها لولا وجود أخيها. لكن كان لها أخ... فهل لهذه الفتاة المسكينة أمّ أفضل حالاً من هذا الأب.

قال دايفد:

ـ هل لي بجرعة الماء الآن.

ـ لم يبق منها الكثير... لقد فقدتها وأنا أفتش عنك.

أخذ الكوب من يدها فجرعه كله ثم أعاده يمسح فمه بظاهر يده... في تلك اللحظة لاحظت الصمت الغريب الملموس، كأنه يأمل في أن تأخذ الصبي وترحل، فاستدارت نحوه:

ـ شكراً لك مرة أخرى.

فهز رأسه باقتضاب. وأسرعت إلى الإمساك بيد دايفد بقوة:

ـ هيا بنا... لنشاهد ما تبقى من الاحتفال.

صوت غلينا الرقيق المتردد أوقفهما:

ـ أتسمحان... أتحبان مشاهدة الاحتفال معنا؟

لاحظت نيكول فوراً نظرة الرفض التي رمق بها الرجل ابنته... فسارعت للرد:

ـ شكراً لك. لا أعتقد هذا.

نظرت الفتاة شزراً إلى أبيها فعلمت نيكول أن الفتاة فهمت سبب الرفض... فأحست نيكول بما يدفعها إلى البقاء لكنها علمت أنها لن تكون مرتاحة بوجود هذا الرجل.

كان الاحتفال قد بدأ منذ فترة وجيزة عندما ضاع دايفد. وما كانت تملكه من طاقة صرفته في التفتيش عنه. واعترفت لنفسها أن الغريب على حق في إدانتها على ترك الطفل يضيع. لكن جو الإثارة كان عظيماً ومن الطبيعي أن تفقد اعتمادها عليه ليبقى حيث هو.

رأسه الصغير البني الشعر استند إلى كتفها، فأراحت نيكول

www.elromancia.com

خدها على شعره الحريري. وأرخت أهدابها بتعب... لو أن هناك من تستطيع الاتكاء عليه... وتنهدت بعمق. فتعبها نفسي أكثر منه جسدي... لكنها حاولت جاهدة أن تمنع موجات اليأس من اجتياحها.

منذ ثلاثة سنوات، تحطمت سيارة شقيقها الذي قتل مع زوجته. يومذاك بدا أن من المنطقي والطبيعي أن تتولى هي رعاية ابن أخيها الصغير دايفي، إذ كان أمامها خياران: إما أن ترعاه هي وإما أن تسلمه إلى الجهات المختصة لتتبناه عائلة أخرى. لكنها كانت تملك وظيفة ممتازة في مؤسسة لم تتوقع أن تفلس بعد بضعة أشهر، ولم تتوقع أيضاً أن تكون مصاريف طفل صغير كبيرة إلى هذه الدرجة. فاضطرت للعمل من خلال مكتب استخدام في خدمة البيوت، إلا أن آخر منزل عملت فيه طُردت منه بعد أن اتهمت ظلماً بالسرقة... وما قبضته ذلك الأسبوع لم يسدّ حاجتها... وعليها بكل بساطة التفتيش عن عمل آخر... وبسرعة.

أنزلت بلطف دايفد عن كتفها بعد أن أحست أنه نام، فيداه التفتا آلياً حول عنقها واحتضنها بقوة... في احتضانه ذاك لها حب عميق يظهر واضحاً على ملامح الصبي... حملت حملها الثقيل النائم ولحقت بالجماهير التي بدأت تغادر منطقة النهر.

الشارع الموصل إلى منزلها كان أكثر ازدحاماً وأكثر إنارة. وهو أحد الشوارع الرئيسية التي تقود إلى قلب مدينة مديسن هات التجارية. عندما مرت أمام مركز توقيف السيارات المليء بها وهي تحاول الخروج للانصراف، تمنت لو تستطيع تحمل

مصاريف الركوب في الباص... فأمامها مسافة طويلة.

خرجت سيارة أميركية حمراء كبيرة من الموقف، فاجتازت بسرعة نيكول... التي لمحت وجهاً رقيقاً حساساً ينظر إليها من النافذة قبل أن تختفي السيارة في الطريق. لكنها لاحظت أضواء السيارة الخلفية الحمراء تعطي إشارة الخطر المتواصلة قبل أن تتوقف إلى جانب الطريق... نقلت نيكول الطفل بين ذراعيها، وقلبها يخفق.

فُتح باب السيارة ثم أغلق بعنف. لمّا كان ذاك الغريب يدنو منها، رأت فيه عجرفة ونفاذ صبر فاستنتجت أن الابنة هي التي أصرّت على أن يتوقف والدها.

ـ هل لنا أن نوصلك؟

العرض المتجهم أعلمها أن هذا الرجل لم يكشف منذ زمن بعيد عن أفكاره الحقيقية لأحد.

ـ شكراً لك.

ـ لن اؤذيك ما دامت ابنتي وابنك معنا.

حاولت تصحيح معلوماته بأن دايفد ابن أخيها، لكنها غيرت رأيها... فليظن ما يريد. فهو على الأرجح لن يصدقها.

ـ ابنتي قلقة عليك إذ تساءلت كيف ستصلين إلى بيتك.

ـ إذن... توقفت بناء على رغبتها؟

ـ طبعاً.

نظرت نيكول إليه وقد اضاءت أنوار الشارع تعبيرات وجه الفتاة التي كانت تفكر في أن من النادر وجود شخص صغير السن يقلق على الآخرين.

www.elromancia.com

ـ سنقبل العرض.

قماش فستان نيكول القطني الرخيص، كشف عن ساقيها عندما حاولت الصعود إلى المقعد الخلفي دون أن تزعج دايڤد. فشدت الثوب إلى تحت قليلاً وحمرة الخجل تملأ خديها... تحس بنظراته الممعنة فيها، ثم أقفل الباب واستدار إلى مقعد القيادة.

مالت غلينا في مقعدها الأمامي:

ـ هل هو نائم؟

كبحت نيكول عدائيتها لترد بهدوء:

ـ أجل... لقد فات أوان نومه.

ـ ألم يكن الاحتفال رائعاً؟

ـ أجل. لقد تمتع به دايڤي، إنها المرة الأولى التي يرى فيها احتفالاً.

ـ وأنا كذلك.

ـ أين تقيمون؟

أجفلها سؤال الرجل المباغت فلامت نفسها لأنها نسيت ذكر العنوان له... وسألته بعد أن حدّدت العنوان:

ـ أتعرف المكان؟

ـ أعيش بالقرب من مديسن هات طوال حياتي وهناك أمكنة قليلة لا أعرفها.

سألتها الصغيرة:

ـ هل تقيمين هنا منذ زمن؟

ـ منذ سنوات.

ـ إنها بلدة جميلة... تعجبني.

ـ قال دايڤد إن اسمك غلين. هل هذا صحيح؟

ـ أجل... غلين هاموند... تصغيراً لاسم غلينا. وهذا والدي مارك هاموند.

ـ اسمي نيكول ماديسون.

ـ ألم يدعُك دايڤي ناني؟

ـ عندما نطق اسمي لم يستطع لفظ سوى ناني... وبقي يناديني به.

استدار مارك إلى الشارع الذي أشارت إليه.

ـ أي منزل منزلك؟

ـ الثالث إلى اليمين.

توقفت السيارة عند المنعطف، فأخذت نيكول تفتش عن مقبض الباب بينما المحرك يصمت والأضواء تنطفىء. راقبت بذهول مارك يستدير إلى بابها... فعلمت أن إظهاره اللباقة سببه طفلته. عندما فتح الباب طوحت بساقيها لتخرج. فقال:

ـ اعطني الصبي!

ومد يده ليأخذه فقالت:

ـ استطيع حمله.

فسخر منها:

ـ تحملينه، وتخرجين مفتاحك وتفتحين الباب؟ أشك في هذا!

فتحت الباب الخارجي والتفتت لتتناول الصبي منه.

ـ لا بأس دليني على شقتك.

www.elromancia.com

- إنها في الطابق العلوي.

بينما كانت تتجه نحو السلم، انفتح باب في الردهة وأطلت عينا صاحبة المنزل الرماديتين الفضوليتان... فارتفع حاجباها وهي ترى الرجل مع نيكول، ولعلع صوتها:

- لقد قلت لك مراراً آنسة ماديسون... لن اسمح لك باستقبال الرجال في شقتك، فهذا منزل محترم!

كبحت نيكول بجهد كبير طبعها الحاد... فأول الشهر مقبل... وإذا كانت تأمل في كسب بضعة أيام تجني فيها الإيجار، عليها أن تبقى هادئة.

- إنه يحمل دايڤد إلى غرفتي... وسيغادر حالاً.

فصاحت المرأة بوقاحة:

- الأفضل أن تغادري أنت وهو المنزل.

لم ترغب في أن تعرف ما استنتجه مارك هاموند من هذا الحديث... عند أعلى السلم فتحت الباب إلى غرفتها الوحيدة... ومدت يديها لتتناول دايڤد فأعطاه لها دون احتجاج.

- شكراً لأنك أوصلتني.

- سأوصل الشكر لابنتي. فهذه فكرتها.

إنه تذكير وقح لا تحتاجه... وارتد على عقبيه يهبط السلم.

●●●

٢ - هكذا الحياة

كانت فرقة موسيقية ريفية تعزف في ساحة مديسن هات، فتعالت نغماتها فوق الضحك الصادر عن الجموع المتفرقة. وهذا جزء من نشاط اسبوع الاحتفالات. كانت كل فسحة متوفرة مستغلة في بيع الأطعمة المحلية والهدايا، والشراب.

في إحدى تلك المنصات التي تبيع السندويشات تمكنت نيكول أخيراً من إيجاد عملٍ مؤقت مدة أربع ليال، سيؤمن لها مدخولاً ما، مهما كان قليلاً. عندما طلبت نيكول من صاحب المنصة الإذن لتحضر معها دايڤي لم يعترض، شرط أن يبتعد عن طريق العمل، مع أن هذا سيعني تركه ساهراً أكثر مما اعتاده بكثير. لن يطول الأمر أكثر من أربع ليال وهي المدة الباقية من الاحتفالات، وإن شاء النوم يستطيع الاستلقاء على كومة القش وراء المنصة إذا تعب.

قلبت نيكول قطعة لحم فوق المشواة الريفية، ثم مسحت متعبة العرق عن جبينها بظاهر يدها... لديها شعور عميق أن كل جهودها لا طائل منها... ففي السنة الأخيرة بدا أن كل شيء يسير من سيء إلى اسوأ.

لقد تعلقت بدايڤد بشكل كبير وترفض حتى التفكير فيما

www.elromancia.com

سيترتب على هذا الحب من مسؤوليات... آه ليتها تستطيع الاستراحة ساعة بعيداً عن متاعبها... أو ليتها لا تشعر بهذا التعب الذي لا يطاق. لربما عندها استطاعت التفكير في حلّ ما... كم سيحلو لها أن تنضم إلى مرح الألوف الصاخبة... التي تبدو خالية من الهموم.

التفتت إلى الجهة التي وضعت فيها دايڤد على مقعد خشبي، بعد أن أعطته سندويشاً... فرأت منظر رأسه الحريري البني المطمئن ثم أعادت نظرها إلى عملها، فتسمّرت في مكانها وذلك لأن عينيها التقتا بعينين خضراوين باردتين... فسرت في شرايينها نار من الكراهية امتد لهيبها إلى عينيها اللوزيتين. تفرسه غير المكترث بها أثار اضطرابها ومع ذلك وجدت نيكول صعوبة في أن تبعد نظرها عنه لكنها أخفضت عينيها عن مارك هاموند إلى ابنته غلينا، التي كانت تجلس على المقعد الخشبي قرب دايڤد، تبتسم بخجل وتتحدث معه بصوت منخفض.

أشاحت برأسها بحدة... تركز اهتمامها على قطعة «الستيك» فوق المشواة... يا لسخرية القدر الذي جعلها تراه ثانية! هي متأكدة من أن الشعور مشترك، هذا إذا كان هذا الرجل يملك شعوراً!

وجدت نيكول أن في هذا الرجل قدراً كبيراً يذكرها بأسد الجبال المفترس. ففي أساريره نظرة نبيلة مترفعة محافظة وعلى وجهه جو من الاستقلالية وقوة يكبحها متى شاء ويطلقها متى شاء مظهراً عندها مخالبه المختبئة، كما في نفسه لا مبالاة تجاه رغبات الآخرين... والأنكى من كل هذا: فيه جاذبية الحيوان

البدائي غير المدجّن البعيد عن المدنية. مع ذلك، ورغم ذلك كله يملك سحراً، مغناطيسياً مذهلاً... وكأنه نوع من خطر مخيف.

هزت نيكول رأسها بشدة لتوقف التخيلات في تفكيرها. فالصدفة هي التي جعلتها تقابله ثانية... الصدفة وتعرف ابنته إلى دايڤد، والاحتفال. التوى فمها بقلق بعد أن أدركت أنها لم تعد تفكر في مشاكلها المالية.

ـ ناني؟

صوت دايڤد الحاد الطفولي الرفيع أعادها إلى حاضرها. وبعد تحضير طبقين إضافيين، مسحت يديها بمريلتها، وسارت نحو دايڤد... متجاهلة عن قصد الرجل الواقف خلفه.

ـ مرحباً غلين.

دفع دايڤد إليها الطبق الفارغ:

ـ أكلت طعامي كله! تريد غلين أن تربني كل شيء هنا.

فسارعت غلينا لتقول بإثارة:

ـ سأمسك بيده جيداً طوال الوقت ولن يضيع.

ـ أنا واثقة أنك ستكونين مهتمة به غلينا لكن... أظن أن من الأفضل أن يبقى معي... فالمكان مكتظ الليلة.

فالتفتت الفتاة إلى والدها برجاء:

ـ اوه دادي...! أرجوك اقنع السيدة ماديسون بأننا سنعتني به!

أجفلت نيكول، مدركة صعوبة الموقف الذي وضعتهما الفتاة فيه. فهي ليست بحاجة لتسمع كلامه كي تعرف أن هذا

آخر ما يفكر فيه... التفتت نظرته الباردة اليها... فاستجمعت نيكول قوتها لتقابل نظرته بأخرى مماثلة.

ـ سيكون الصبي سالماً معنا... وسنعيده لك فور الانتهاء من جولتنا... سيدة ماديسون.

بدت السخرية عندما شدّد على كلمة «سيدة» فسارعت تقول له:

ـ أنا الآنسة ماديسون، ودايفد ابن شقيقي. والآن اعذروني لدي عمل.

فردّ مارك بنعومة:

ـ سنعيده بعد ساعة تقريباً.

فالتفتت إليه:

ـ لكنني لم أقل إن بإمكانكما أخذه!

فقال متحدياً:

ـ الطفل لا يفعل شيئاً أثناء عملك فما الضرر؟

فتنهدت، غير راغبة في جدال عقيم:

ـ حسناً... سأتوقع منكما إعادته بعد ساعة.

بعد رحيلهم، أخذت تتساءل ما إذا كانت مجنونة لتوافق مارك هاموند وابنته، الغريبين عنها كلياً، بغض النظر عن مظهرهما المحترم... وكلمة «محترم» وصف يصعب أن ينطبق عليه.

أحست، دون أدنى شك، أنه إنما يقوم بكل أنانية، بتحقيق رغبات ابنته، مستخدماً دايفد للترفيه عنها لئلا يضطر للاعتناء بها هو نفسه...

بعد ساعة من الوقت، أخذت تنظر إلى الجموع تفتش عنهم دون قصد... أخيراً ظهر لها دايفد بين ذراعي مارك، يتقدم من المنصة ويده تمسك بيد غلينا... عينا دايفد البنيتان الواسعتان المذهولتان مما شاهده أعلمتاها أنه سيتكلم دون توقف أكثر من ساعة ليشاركها بما شاهده في جولته... وكان وجه غلينا أيضاً مفعماً بالحيوية والسعادة.

قفز دايفد إلى ذراعيها الممدودتين إليه:

ـ هل أمضيت وقتاً طيباً؟

ـ بل عظيماً!

فقالت غلينا:

ـ لقد أعدناه سالماً.

فابتسمت نيكول لها:

ـ أجل هذا ما فعلتماه.

والتفتت إلى الأب وقد أصبحت ابتسامتها شاحبة منخفضة تحت نظرته الممعنة فيها.

ـ شكراً لك.

أوقفت نيكول الصبي على المقعد الخشبي الذي كان يجلس عليه ووضعت أطراف قميصه تحت بنطلونه، فقال:

ـ كان يجب أن تشاهدي ذاك البيض الجميل المعلق في الهواء الذي يمكنك تكسيره فوق رؤوس الناس!

قال هذا بذهول وكأنه اكتشف شيئاً مهماً... فلم تتمالك نيكول نفسها من الضحك، لتمحو الضحكة خطوط التوتر عن وجهها.

www.elromancia.com

مدت غلينا يدها إلى حقيبة القش التي تحملها، وأخرجت منها بيضتين من الشوكولا ملفوفتان بأوراق ملونة:

ـ خذ هذه معك إلى البيت دايفي.

أحست نيكول بجسده الصغير... يتصلب.

ـ ناني وأنا... لا نقبل الإحسان.

أحست بحمرة الحرج تعلو وجنتيها أمام نظرته الساخرة التي وجهها إليها وكأنها لمسة حقيقية... لقد عرف أن دايفد يعيد كلمات رددتها هي له أكثر من مرة. وأحست بالمرارة من النظرة المتألمة المطلة من عيني غلينا الزرقاوين.

فقال مارك بصوت رقيق منخفض:

ـ هذا ليس إحساناً... إنها هدية الاحتفال... كهدية الميلاد.

فأدار دايفد رأسه إلى نيكول يستفسر عن صحة كلام مارك. بما أن هاتين البيضتين هدية بريئة من غلينا، لم تشأ نيكول الرفض... لكن والدها الآن تدخل... لذا أرادت الرفض. لكن الرفض لن يؤثر في مارك هاموند الذي يدعم ابنته في هذا فقط... لكنه سيؤثر في دايفد الذي لن تستطيع هي تقديم مثل هذه الهدية له. فوافقت:

ـ هذا صحيح دايفد... لماذا لا تذهب وتعرض لعبتك على غلينا؟

احتضن الطفل البيضتين بحذر، وانطلق نحو لعبة وضعها خلف المقعد الخشبي.

باستثناء تلك الملاحظة، لم تسمع من مارك كلاماً، لكنها

لم تفقد إحساسها بوجوده، لأنه كان يوجه إليه نظراته الثاقبة.

انتهت فرصتها فعادت إلى العمل بعد أن ودعت غلينا دايفد... تكور دايفد بإرادته فوق كومة قش خلف المنصة وأخذ يراقب الناس... وبعد العاشرة بقليل لاحظت أن رأسه هبط لينام نوماً عميقاً.

ينتهي رسمياً الاحتفال كل ليلة في العاشرة والنصف. لكن نيكول لا تغادر العمل قبل الحادية عشرة والنصف، وذلك حتى تنهي تنظيف المشواة والمنصة... بحثها عن العمل ثلاثة أيام ووقوفها أمام المشواة الحارة ست ساعات متواصلة وحملها دايفد حتى المنزل سيجعلها تنهار عندما ستصل.

حملت دايفد ولعبته وحقيبتها، ثم تقدمت لتخرج من بوابة الحديقة العامة نحو الشارع.

ما أن خطت خارجها، حتى ابتعد شخص طويل عن المكان الذي كان يستند إليه على جدار الحديقة... وتعرف ذهنها المتعب إلى مارك هاموند.

ـ سيارتي متوقفة في الشارع.

ـ لست مضطراً...

فرفع رأسه:

ـ أتريدين الركوب معي؟ نعم أم لا.

نظرت نيكول إلى عينيه الباردتين لحظات... ثم تنهدت:

ـ فكرة غلينا على ما أعتقد... حسناً سأقبل.

ما أن أصبحت في المقعد الأمامي حتى أعطاها دايفد

www.elromancia.com

النائم، واستدار ليصعد السيارة. عندما كانت تضع دايڤد في وضع مريح أكثر... فتح عينيه وأدار رأسه فيما حوله:

ـ أين غلين؟

ـ إنها في الفراش نائمة.

ـ وأنا تعب كذلك.

أرخى رأسه على كتف نيكول، وعاد إلى النوم العميق. فأخفضت رأسها إلى رأسه، تراقب السيارة القوية تندفع في الشارع الخالي الذي أطبقت عليه الظلمة والهدوء وكأنهما شرنقة دافئة. ثم تنهدت متمتمة:

ـ لم أكن أعرف أن الصمت جميل آمن هكذا!

ثم أحست بتأنيب الضمير لأنها لم تشكره بعد:

ـ أقدر لك جداً توصيلنا إلى المنزل سيد هاموند لعل زوجتك لا تعترض على صنيعك.

التوت خطوط فمه القاسية بابتسامة قاسية وعيناه تجولان فوق وجهها:

ـ أشك في اعتراضها... لأنها ميتة.

الاعلان الفظ الجريء أذهل نيكول:

ـ أنا... أنا آسفة!

ـ صحيح؟ لماذا؟ ألأنها ميتة أم لأنني لم اتظاهر بالحزن على شيء حصل منذ أكثر من عشر سنوات؟

لم تستطع الرد... فبقيت صامتة... مدركة أنه لا يحب الاشتراك في حديث عادي. عندما وصلوا إلى المنزل، أخذ دايڤد منها ثانية. وبينما كانت تخرج المفتاح... انفتح باب

صاحبة المنزل ثانية، وأطلّ منه وجهها القبيح... لكن لحسن الحظ لم تقل شيئاً، تاركة وجودها يذكرهما بما قالته ليلة أمس.

سارعت نيكول تصعد السلم، لكن ساقيها التعبتين تعثرتا عند القمة... وسرعان ما دعمتها يده القوية ممسكة بها من المرفق... عندئذ تمنت نيكول لو تستطيع الاستناد إليه ولو للحظة. لكن يده سرعان ما انسحبت.

انفتح باب غرفتها أكثر مما كانت تنوي فكشف عن منظر الغرفة النظيفة الرثة الأثاث. خلال الوقت القصير الذي تم فيه نقل الطفل النائم من ذراعيه إلى ذراعيها، انتابها إحساس بأن منظر الغرفة انطبع في ذهنه... وشكرته... فهز كتفيه ثم ارتد على عقبيه ينزل السلالم قبل أن تقفل الباب.

كانت كل ليلة من الليالي التالية تمر كسابقتها إذ كان مارك وغلينا يصلان في الوقت نفسه فتمضي غلينا معظم الأمسية ترفه عن دايڤد وتلعب معه تحت أنظار مارك. وعند الإقفال، كان ينتظرها في الخارج وحده ليوصلهما إلى المنزل... بعد الليلة الثالثة أحست نيكول أن له دافعاً آخر غير ارضاء ابنته. لكن لم يترك لها العمل ليلاً والتفتيش دون نجاح عن عمل دائم خلال النهار والعناية بدايڤد دقيقة للتفكير.

يوم الجمعة، كانت الساعة تقارب منتصف الليل عندما أوصلها مارك إلى منزلها... إنها آخر ليالي الاحتفال... وآخر ليالي العمل... عندما تناولت دايڤد من بين يديه خامرها شعور بأنها لن تراه أو ابنته بعد الآن... لكنه لا يبدو مهتماً بها. حسناً... ولا هي كذلك... إنها تفكر فقط في أن دايڤد

سيشتاق لابنته. فتمتمت بحدّة «عمت مساء» ثم دخلت غرفتها.

رغم ضعفها وإرهاقها... كانت تعلم أنها لن تستطيع النوم قبل معرفة وضعها المالي بالضبط، فحضرت القهوة وأخرجت ما تقاضته من الحقيبة ووضعته على الطاولة.

عندما كانت تعيد حساباتها راحت ترشف قهوتها، التي تعمدت أن تكون مرّة، فلا يهم ما قد تلغي من أشياء مهمة... فما معها رغم هذا لا يكفي مصروف الأسبوع المقبل. خلال السنوات الثلاث التي اشرفت فيها على إعالة دايفد، لم يبد لها المستقبل أظلم من الآن، ولا أعجز حالاً... فدفنت وجهها بين يديها، وأجهشت بالبكاء بصمت ونحيب تذرف دموع لاذعة، لم ترح في نفسها ألماً.

سماعها تكتكة استدارة مقبض الباب جعلها ترفع رأسها بخوف وعدم تصديق... فإذا بها تجد جسد مارك هاموند يسد الباب وعيناه الثاقبتان لم يفُتهما شيئاً، لا الدموع على خديها، ولا المبلغ الضئيل المبعثر أمامها، ولا الأرقام المسجلة على ورقة، ولا جو الهزيمة التي تثقل كاهلها.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ لقد نسيت أخذ المفتاح من الباب.

وتقدم الخطوات الضرورية ليضع المفتاح على الطاولة، ثم وضع كيساً ورقياً في المنتصف:

ـ ما... ما هذا؟

ـ سندويشات!

ـ لي أنا؟

ـ أنا تناولت العشاء الليلة وأنت هل تناولته؟ أم أن دايفد تناول الوجبة التي تستحقينها من عملك؟

استدارة رأسها الحادة كانت الرد الذي يريد.

ـ هذا ما ظننته.

ـ لست جائعة.

زفر أنفاسه بصوت منخفض ليشير إلى امتعاضه من رفضها:

ـ أرجوك، وفّري علي تلك الخطبة عن الاحسان... فمن الطفل كانت جميلة... أما منك فستكون سخيفة!

فتحت اصابعه السمراء الكيس الورقي ليكشف عن قطعتي خبز فيهما قطعة لحم، وضعها أمامها، دون النظر إلى المال الذي وضع السندويش فوقه... وقال امرا:

ـ كلي!

أعلمتها نظرته المصممة أنه سيدسها بالقوة في فمها إذا لم تفعل... وكان الجوع قد سلبها قوتها... فحدقت إلى ذلك القناع البرونزي على وجهه:

ـ كم أنا مدينة لكرمك هذا؟

أحست بالدماء الحارة تغلي في جسدها وهو يمر بعينيه عليها... يحدق بوقاحة في انحناءات جسدها الأنثوية... التي بانت أكثر بعد أن خسرت المزيد من وزنها مؤخراً.

أجابها:

ـ على الأقل لقد تعلمت أن لا شيء مجاني... لكن ما أريده الآن بضع دقائق لأبحث معك أمراً بعد أن تنهي طعامك.

نظرت إليه متحدية:

ـ أهذا كل شيء؟

ـ في الوقت الحاضر. فنتيجة نقاشنا النهائي ستكون خاضعة لقرارك... فهل يرضيك هذا؟

ـ ليس تماماً...

ـ كلي... ليس لدي نية في اغتصابك.

سرقت منها فظاظته شهيتها إلى الطعام، لكنها لم تمنع ألم الجوع عنها. لقد آمنت بأنه لن يتحرش بها رغم إحساسها الذي يقول إن من الحكمة أن لا تصغي إلى ما سيقوله. عندما قضمت أول لقمة من السندويش ابتعد عن الطاولة فازدردتها بسرعة واستدارت وهو يسير نحو المطبخ الصغير:

ـ ماذا ستفعل؟

ـ أصب لنفسي فنجان قهوة.

ـ سأصبه لك بنفسي!

لكنه كان قد دخل المطبخ ليرد عليها ساخراً:

ـ لماذا؟ الآن خزانة مطبخك فارغة؟ استنتجت ذلك!

فعادت نيكول محبطة إلى مقعدها! أما هو فعاد بعد قليل ليجلس أمامها، فأحست بالحرج من تناولها الطعام تحت ناظريه. ثم لاحظت أنه لا ينظر إليها... بل إلى صورة شقيقها وزوجته ودايفد الموضوعة على رف قرب الطاولة.

ـ إنها صورة أخي وزوجته وقد التقطت في عيد ميلاد دايفد الثاني.

ـ إذن هو ابن أخيك.

ـ أجل... لقد قتلا في تحطم سيارة إثر التقاط الصورة

مباشرة.

ـ أليس لدايفد عائلة سواك؟

ـ والداي ميتان... ووالدة زوجة أخي عاجزة.

ـ لا بد أنك كنت صغيرة السن يومها.

ـ كنت في الثامنة عشرة... لكن ما شأنك في هذا؟

تلقت رداً على حدتها بنظرة ضيقة:

ـ هذا يعني أنك في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين؟

ـ الحادية والعشرين.

كل ما تستطيع استنتاجه أن حديثه هذا يخدم أمراً يريد مناقشته معها.

ـ أليس لديك شاب صديق؟

ـ لا!

ـ قلة من الشبان قد تقبل بمسؤولية طفل رجل آخر. أو بالقيود التي تفرضها على حياة الفتاة الاجتماعية.

وضع اصبعه على الجرح تماماً... لكن استنتاجه الصحيح لم يخفف من قلقها... فهي ترفض الاعتراف بصدق ما يقول لذا بقيت صامتة. فأعاد الصورة مكانها:

ـ أنت تضحين بالكثير لأجل الصبي.

ـ الصبي له اسم... انه دايفد... كما أنني لا أعتبر اعتنائي به تضحية... فموت أهله ليس غلطته أو ذنبه!

ـ ولا غلطتك كذلك، مع أنك مصممة على دفع ثمنها.

فسألته غاضبة:

ـ وماذا تقترح أن أفعل؟ أسلمه للميتم أم أعطيه للسلطات

كي يتبناه أحد، قد لا يشعر عنده بالاستقرار والمحبة؟

ـ لا أتصور أن هناك شيئاً آخر يمكنك القيام به في مثل هذه الظروف.

رغم موافقته على قولها وفعلها... إلا أنها أحست أنه لا يوافق بالمطلق... فأبعدت ما تبقى من السندويش جانباً... فقد فقدت شهيتها لأي شيء.

● ● ●

٣ ـ العاطفة والرغبة

تعبت نيكول من التلاعب كالقط والفأر. فسألته متحدية:

ـ هل تسمح بأن تقول لي بالضبط ما تريد بحثه معي؟

أبعدت يده فنجان القهوة إلى منتصف الطاولة:

ـ هذا المساء... قالت غلينا، إنها تتمنى لو أن أمها لم تمت أثناء ولادتها. وهذا تصريح غير عادي من طفلة .. لكن علي أن أعترف أن سبب قولها هذا هو رغبتها في أخ أو أخت... وأستطيع القول انها متعلقة بابن أخيك.

ـ آسفة إذا كان هذا لا يناسبك.

فضاقت عيناه:

ـ نحن نعيش في مزرعة. وعمتي، التي تسكن معنا، تعتني بغلينا. لكنها أصبحت عجوزاً يصعب عليها القيام بالأعمال المنزلية المطلوبة وقد عبّرت عن رغبتها في انهاء خدماتها إذا جاز التعبير.

تمتمت نيكول:

ـ فهمت.

أخذت الصورة تتوضح في ذهنها، إنه يبحث عن بديل لعمته. عن امرأة تعتني بالمنزل وبابنته... فأكملت:

www.elromancia.com

- وهذا ما تود بحثه معي.

- بالضبط... اعذريني على صراحتي... الحياة ليست سهلة لك وللصبي... وهذه الأرقام التي أراها على الورقة لا تظهر مستقبلاً مفرحاً.

- إذا كنت تعني... انني أحتاج إلى وظيفة؟ فالرد نعم.

- أنا لا أعرض عليك وظيفة.

تنفست عميقاً وأحست بتعب مفاجىء من محاولة تجميع شجاعتها أمام شخص يفوقها قدرة فسألته:

- إذن إلامَ يقود هذا الحديث كله؟

- أريد أن أتزوجك.

لم تتغير لهجة صوته الخشنة الوقحة إطلاقاً، ولا تزحزحت عيناه عن وجهها... فرمشت بعينيها وقطبت:

- أهذا نوع من المزاح؟

- بل إنني جاد كل الجد.

مد يده إلى جيبه ليشعل سيكارة بواسطة ولاعة ذهبية. فردت عليه نيكول بارتباك تام:

- لكنني لا أحبك... ومن المؤكد أنك لا تحبني.

- صحيح.

لم تستطع أن تجد في الأمر مرحاً، فقالت له بغضب:

- ظننتك قلت إنك بحاجة لمدبرة منزل، ولمن يعتني بغلينا.

- صحيح... لهذا أريد الزواج منك.

أحست بجفاف فمها، وبتوتر... نهضت عن الطاولة

واتجهت نحو المطبخ الصغير تطلب المزيد من القهوة التي تحتاج إليها.

- أخشى أنني لم أفهم دوافعك. لست بحاجة إلى زوجة لتحصل على مدبرة منزل.

- أريد أن أكون واثقاً أن من سأحصل عليها ستبقى دائماً... فمدبرة المنزل عادة تستقيل. ومن السهل فسخ ارتباطات العمل أما فسخ عقد الزواج فأصعب بكثير.

- الزواج... إنها طريقة درامية للاحتفاظ بمدبرة منزل؟

- ليست درامية... بل عملية.

وضعت قطعة السكر في القهوة وراحت تذيبها:

- أظن الفكرة كلها سخيفة!

عندما ذكر مارك أنه بحاجة لمدبرة منزل، كانت ترغب في الوظيفة... وقفز قلبها فرحاً لأنها فكرت في أن دايفد سيعيش في الريف حيث ستكون على مقربة منه كلما احتاج إليها... لكن الزواج أمر آخر!

- لماذا الفكرة سخيفة؟ أنت بحاجة للوظيفة وأنا بحاجة لمدبرة منزل. ولقد عرفت سلفاً أنك عاملة نشيطة نظيفة مرتبة تحبين الأطفال ويبادلونك حبهم... أو على الأقل أن ابن أخيك يحبك. وغلينا تلازم الهدوء معك أكثر من أي شخص كبير آخر... أعتقد أنك تطبخين؟

- أجل... أعرف الطبخ... ولكن.

أسندت جنبها إلى طرف الباب ولوحت بيدها يائسة:

- ... لكن... لا بد أن هناك فتيات كثيرات يرغبن في

www.elromancia.com

الزواج منك، قد يكن خيراً مني.

فوقف بكسل:

ـ لسن بأفضل منك... ربما لديهن ثياب أفضل، وثقافة أوسع، ومحيط اجتماعي مختلف، وكلهن يقنعن أنفسهن بأنهن واقعات في حبي... وهن في الواقع لا يحببن الا اسم هاموند وماله... لذا لست بحاجة إلى حبهن.

ظهر الازدراء واضحاً في كلامه، مما دعا نيكول لتسأل:

ـ ألا تحتاج إلى حب أحد؟

ـ وهل هذا يصدمك؟ ربما العالم كله يعيش تحت ضباب الخداع.

كانت قد تساءلت من قبل إذا كان لديه مشاعر... والآن تأكدت أنه يخلو منها...

ـ أنت لست بحاجة إلى زوجة... بل إلى عبدة.

ـ لكن هذا غير قانوني.

شهقت نيكول من الازدراء:

ـ لا أصدق أنك تتوقع مني جاداً أن أوافق على اقتراحك.

ـ لماذا؟ الاقتراح يفيدك كثيراً. فبزواجك لن تحتاجي أنت والصبي إلى الحاجيات المادية من مأكل وملبس ومأوى وستعيشين عيشة تعتبر خيراً من عيشتك التعسة هذه. أستطيع توفير كل الاحتياجات المادية لتعليمه خير تعليم. ولن تحملي على عاتقك إلا عبء العناية بمنزلي وبابنتي... وعندما سيكون دايفد في المدرسة، ستجدين متسعاً من الوقت.

الصورة التي رسمها لها، مغرية جداً... وهو يعرف أنها

تغريها إذ كيف ستؤمن للصغير ما يعدها به؟ وماذا يخبىء المستقبل لها سوى أيام لا تهدأ ولا تكل فيها سعياً وراء لقمة العيش، والقلق الدائم لدفع الفواتير وإيجار السقف الذي يأويهما؟ سألها مارك:

ـ ما الأمر...؟ أما زلت تحلمين بأن يظهر أمير الأحلام ليحملك على حصانه نحو مغيب الشمس؟... متى كانت آخر مرة خرجت فيها مع شاب؟

فأجابت مترددة:

ـ منذ ما يزيد عن سنتين... لكن ألن يحرجك الزواج من فتاة مثلي؟

ـ ولماذا الحرج؟ أنت فتاة جذابة... تتعبين وتكدين من العمل. وبحاجة للراحة والمزيد من اللحم فوق عظامك، والمزيد من الملابس الجميلة الجذابة فوق جسدك.

أمسك بذقنها ليدير رأسها نحوه:

ـ في الواقع... ستصبحين جميلة جداً... فذرات الذهب في عينيك اللوزيتين، واكتناز شفتيك، تثير رغبة أي رجل. أعتقد أن اصدقائي سينظرون إلى زواجنا نظرة رومانسية!

لكن جاذبيته القوية هي التي أخافتها بل جعلتها تشعر بأنها حساسة تجاهه وها هي تشعر بهذا الشعور من خلال تصاعد توترها المفاجىء فإذا هي فجأة تصبح أنثى افتقدت اهتمام الرجل بها ردحاً من الزمن.

حاولت مقاومة هذا الاكتشاف... فشدت رأسها من يده... وقالت بغضب:

www.elromancia.com

ـ وماذا ستتفحص بعد وجهي؟ أسناني كالحصان!

فتجاهل غضبها:

ـ الزواج سيكون خيراً لنا إذ لن يتسبب في إثارة العجب كما سيسببه استخدامي مدبرة منزل.

ـ هذا جنون!

ـ لكنه منطقي... فما هو ردك؟

ـ أحتاج وقتاً للتفكير.

مع أنها لا تعرف بماذا ستفكر...

ـ ليس لدي وقت كبير... سنغادر أنا وغلينا إلى المزرعة صباح الأحد. وهو وقت وجيز لن يمهلنا للقيام ببعض الترتيبات المحددة التي لا تُؤخَر.

فمررت اصابعها بقلق في شعرها:

ـ لا يمكنك توقع رد مني في الحال.

ـ بلى يمكنني، وأطلب الرد الآن... ما البديل لك؟ لقد رأيت، قبل عودتي منذ قليل، مستقبلاً قاتماً... أنا خارج نيكول ماديسون... وأريد الرد قبل أن أخرج من الباب.

نظرت إليه بذهول لا تصدق ما تسمعه... فحدق فيها لحظة... لترى التصميم على ما قال... ثم اتجه نحو الباب دون أن ينظر خلفه... عند سماع تكتكة مقبض الباب، توقف شلل نيكول:

ـ نعم!

فالتفت إليها دون أن تتغير تعابير وجهه المتعجرف... ودون أن يظهر أثر للرضى بل دون أن تظهر أية مشاعر أخرى.

ـ سأمر لأصحبك والصبي في الثامنة من صباح الغد. وبما أنك لن تعودي إلى هذا المكان ثانية وضبي الأغراض التي تحتاجينها أو ترغبين في الاحتفاظ بها. ولن أهتم بالملابس. فسأشتري لكما خزانة مليئة بالجديد منها.

دون أن يترك لها فرصة للرد، أو حتى لتوديعها. خرج من الباب، فاتكأت على باب المطبخ، ثم نظرت إلى الطفل النائم... وهي تتمتم بصوت مرتفع:

ـ هل فعلت ما هو صواب؟ اوه... يا إلهي... هل فعلت الصواب؟

كان الارتباك قد عقد معدتها عندما قرع مارك الباب عند الثامنة تماماً في الصباح التالي... وقبل أن تساورها أية شكوك كان يضع حقائبها في السيارة ويتعامل مع صاحبة المنزل. كان اليوم كله دوامة من التنظيم لكن مارك لم يترك لنيكول مجالاً في التفكير بما تفعله إذ اختار لها مارك خزانة كاملة من الثياب الداخلية الحميمة، ومن الأكسسوار وفساتين السهرة والنهارات... وذلك أثناء ذهابها إلى المزين لتصفيف شعرها. وكان لدايفد الاهتمام ذاته، إذ اشترى له الثياب على أنواعها وإضافة إليها حذاء «كاوبوي».

لم تكد نيكول تلتقط أنفاسها بعد الغداء حتى كان مارك يضعهم جميعاً في سيارته يتجه إلى أقرب مسجل عقود لعقد الزواج.

حدث كل شيء بسرعة. وسرعان ما أصبح خاتم الزواج في اصبعها مبرهناً بذلك أنها أصبحت السيدة مارك هاموند... أما

غلينا فوقفت أمامهما إلى جانب دايفد الذي كان ينظر بشكل دؤوب إلى حذائه اللماع الجديد.

بدا لها مارك كعادته، بعيداً متحفظاً، عيناه تميلان إلى الاخضرار بدل لونهما الأزرق.

- لقد فات أوان التفكير.

فأجابته بصدق:

- لكن الوقت مبكر جداً لأقرر ما إذا ندمت أم لا. وأنت؟

- أنا...؟ أنا لا أندم على ما أفعله.

- ما أروع أن يملك المرء مثل هذه الثقة بالنفس!

- المرة الوحيدة التي قد يندم فيها المرء حين تكون مشاعره متورطة.

فسخرت نيكول:

- وأنت لا تملك مشاعر؟

- لا... فهذا شيء لم أحصل عليه عند ولادتي.

فحولت نظرها إلى غلينا تمسك بيد دايفد وكأنها تحميه:

- ألا يوحي إليك هذا بشيء؟

- مجرد مسؤولية... وهذا أمر آخر قد يصدمك.

- هذا ما يصعب علي فهمه... ألم تهتم بأحد قط... والديك... زوجتك؟

تحركت عضلات كتفيه دون اكتراث. ونظر إلى وجهها:

- أنا لا أهتم بنفسي. والأفضل أن تكتشفي هذا عني الآن... نيكول. لذا لا تتوقعي الكثير من زواجنا.

ما زالت تستغرب سماع اسمها منه. كان يبدو كأنه يكلم

شخصاً غيرها. لو أن تفكيرها قد توقع شيئاً ما يتكون بينهما، فقد أماته هذا الكلام. وهذا ما أراح ضميرها قليلاً... فصحيح أنه زواج مصلحة لكنه زواج حقيقي يتلقى فيه كل منهما ما يريد وما يتوقع، لا أكثر ولا أقل.

غرف الفنادق خلال فترة الاحتفالات تكون مكتظة لكن مارك استخدم ماله أو نفوذه ليستأجر لها غرفة مزدوجة السرير في طابق آخر غير طابقه. لكن هذه لم تكن ليلة زفاف كالتي كانت تحلم بها... وزوجها في الطابق الذي يعلو طابقها... لكنها لم تكن تتوقع أن يترك لها دايفد عندما كانت تحلم الأحلام الرومانسية. ولا كانت تتوقع الزواج من رجل لا تحبه. لكنها لا تمانع أبداً... فدايفد سعيد وهذا كل ما من حقها أن تطلبه.

عندما جلس الأربعة إلى مائدة الطعام في الصباح التالي، بدوا وكأنهم عائلة كاملة، ليس فيها الضجيج أو الفوضى التي يُحدثها الصغار عادة فغلينا كانت خجولة منعزلة، خاصة في الأماكن العامة.

حالما انتهت وجبة الطعام انطلقت بهم السيارة نحو المزرعة... وكان بعض الإثارة قد انتقل إليها من دايفد الذي كان يترقب رؤية منزله الجديد وقد تاقت لتستفهم من مارك عن حال المنزل... لكنها صرفت النظر، فقد يعتبر سؤالها ارتزاقياً لا فضولياً.

ما أن أصبحت مدينة مديسن هات خلفهم حتى أسرت المناظر الخلابة اهتمام نيكول. لقد مضى زمن طويل لم تخرج

فيه نحو الريف، فكان أن خطف امتداد السماء الأزرق الواسع أنفاسها... لكن ما كان أجمل هي الحقول التي لا حد لها المليئة بأزهار الربيع. كانت الحقول تضيق أحياناً وتتسع أخرى لتملأ المراعي الوادي كله.

سأل دايفد من المقعد الخلفي.

- كم ميلاً بعد؟

فرد عليه مارك:

- بضعة أميال أخرى.

لم يبد أنهم قطعوا مسافة بعيدة عن المدينة، ولم تستطع نيكول منع نفسها عن السؤال:

- كم تبعد المزرعة عن مديسن هات؟

- حوالي الستين ميلاً.

كان يخفف سرعة السيارة لينعطف إلى طريق زراعي بعيد عن الطريق الرئيسية... فقالت دون تفكير:

- كان بإمكانك الذهاب والعودة بسهولة لحضور الاحتفالات.

- لقد اعتقدت غلينا أنها قد تخسر رؤية شيء ما.

نظر في المرآة أمامه إلى ابنته التي كانت تصغي بصبر إلى دايفد... وأضاف:

- لكن الشيء الوحيد الذي كانت ستخسره، هو رؤية الصبي.

- وهل أنت آسف لهذا؟

- لا... وأنت؟

- لا.

بعد دقائق قليلة ابطأت السيارة ثانية، وانعطفت إلى طريق مرصوف بالحصى فمرت بخفة تحت عمودين مرتفعين يشكلان مدخل مزرعة هاموند. ثم راح الطريق يرتقي تدريجياً وصولاً إلى صف من الأشجار المرتفعة. من خلال أغصان تلك الأشجار لمحت نيكول اللون الأحمر القاتم ثم اللون العاجي... علمها بأن مارك ثري ما لم يهيئها تماماً لرؤية منزل المزرعة الواسع المنبسط القابع تحت الأشجار العالية المرتفعة.

مع أنه عصري الطراز، إلا أن هذا الطراز يعود إلى الطراز الإسباني بسقفه القرميدي الأحمر وبجدرانه العاجية اللون، وبحديده المصقول المزخرف. كانت تحيط به شجيرات الورود والمانوليا والأزهار المختلفة وقالت غلينا:

- وصلنا إلى البيت.

أوقف مارك السيارة أمام الممر الحجري الذي يقود إلى المنزل، فخرج من بين الأشجار باتجاههم رجل، طويل، عريض... شيب فوديه يختلط بسواد شعره الذي أطل من تحت قبعة رعاة بقر عريضة... كان أكبر من مارك قليلاً... ربما في أواخر الثلاثين من عمره.

- أرى أنك عدت يا مارك... كنت قادماً إلى المنزل لأتحقق من وجودك.

كانت غلينا ودايفد الأسرع في مغادرة السيارة بينما خرجت نيكول على مهل تتأمل المنزل واتساعه. وسأل الرجل غلينا:

- هل تمتعت بالاحتفال؟

www.elromancia.com

فابتسمت بخجل:

ـ أجل.

والتفت الرجل إلى دايفد المذهول بما أمامه:

ـ مرحباً! أنت هناك! من أنت؟

ـ اسمي دايفي... وأظنني سأعيش هنا.

نظر الرجل بفضول إلى مارك، ثم لاحظ وجود نيكول بطرف عينه، فنسي الصبي عندما صب انظاره عليها فأحست أنها تحمر خجلاً بسبب هذه النظرات المعجبة. كانت عيناه البنيتان تقولان لها، باحترام، إنه يجدها جذابة، فأحست أنها ستعجب بهذا الرجل... كائناً من كان.

ـ دوغلاس... أود أن تتعرف إلى زوجتي نيكول... ابن أخيها عرفك عن نفسه... نيكول، هذا رئيس عمالي... دوغلاس تشاندلر.

لو أن صاعقة ضربت الرجل لما صعق ذلك الوسيم أكثر مما صعق فبدأ اللون الأحمر يجتاح وجنتي نيكول، فحاول اخفاء دهشته ليقول:

ـ اعذريني... لم أكن أعلم أنه سيتزوج.

فردت نيكول، عندما لم يصدر تعليق من مارك:

ـ لا بأس في هذا.

فقال مارك:

ـ دوغلاس يتناول الطعام معنا عادة، يمكنك أخذ العلم بهذا.

فقال دوغلاس:

ـ إذا كان لديك أي اعتراض... يمكنني تدبير أمر نفسي.

فابتسمت نيكول:

ـ أبداً... وأرجو أن تحافظ على عادتك سيد تشاندلر.

ـ اسمي دوغلاس، فنحن لا نستخدم الرسميات في المزرعة.

ـ إذن نادني نيكول.

ـ شكراً لك. سأفعل... أظنك تواقة لرؤية منزلك الجديد، لن اؤخرك.

لمس طرف قبعته تحية وعاد من حيث أتى. فقال مارك بنعومة وهما يستديران للحاق بالولدين:

ـ أعجبك... أليس كذلك؟

ـ وهل هناك سبب يمنع إعجابي به؟

ـ لا.

ـ لماذا تسأل إذن؟

ـ النساء يجدنه جذاباً.

ـ يخيل إلي أنه يستحق.

فالتفت إليها... بارداً حتى الجمود:

ـ لماذا تشعرين بالذنب لانجذابك إليه؟

ـ لا أشعر بالذنب.

لكن نظرته سخرت منها... وقال:

ـ لا داعي للخجل من مثل هذا الشعور.

ـ وكيف تعرف؟ أنت لا تملك مشاعر!

ـ لا تخلطي بين المشاعر والعواطف... فأنا أرى، ألمس،

www.elromancia.com

أسمع، أشم وأذوق كأي رجل آخر. والجاذبية بين الجنسين ليست سوى ردة فعل جسدية... ليس فيها عاطفة بل رغبة.

●●●

٤ ـ دون رحمة

أحست باصبع من الجليد يمر فوق عمودها الفقري... وتجمدت لتلميحات مارك المشيرة إلى أنها قد تكون انجذبت إلى دوغلاس تشاندلر.

وبينما كانت تقطع العتبة، أجبرت نفسها على تذكر أن زواجهما ليس زواجاً حقيقياً... بل ترتيبات لها طابع المصلحة فقط. إذ كان من الواضح أن مارك غير عازم على الالتزام بتقاليد العريس والعروس... فلم يقبلها بعد مراسم الزواج، وهو الآن يتركها تقطع عتبة بيتها الجديد سيراً على قدميها بدل أن يحملها... والشكر لله، لأنهما لن يحتاجا إلى الادّعاء.

انصب معظم انتباهها، عندما ألقت نظرة على غرفة الجلوس، على امرأة مسنة قوية البنية تجلس على طرف كرسي مستقيم الظهر، تمسك بيدها أصابع غلينا. قالت المرأة بلهجة لا رنين فيها أثناء نهوضها:

ـ إذن، هذه عروسك مارك؟

كان وجه تلك العجوز يخلو من التجاعيد التي لم يظهر منها إلا القليل حول عينيها وفمها... فالوجه قوي وتقاسيمه متشددة قاسية وخطوط فمها تدل على كثرة الابتسام... لكنها بدت امرأة

www.elromancia.com

لا تعطي صداقتها جزافاً.

ـ أجل... هذه زوجتي نيكول... وهذه عمتي روز يا نيكول.

فابتسمت نيكول... واصبحت يدها بين أصابع المرأة:

ـ كيف حالك؟

ـ اتمنى أن تعجبك الاقامة هنا سيدة هاموند.

كانت لهجتها تقول إنها تشك في هذا... ثم أمعنت النظر في مارك سائلة:

ـ أتريد شيئاً تأكله؟ لقد نظفت طعام الغذاء لئلا يفسد. قلت إنك عائد صباح اليوم.

فردت نيكول:

ـ الذنب ذنبي سيدة فريغسون... لقد غرقت في النوم.

قال مارك:

ـ بعض «الكيك» والبسكويت، وطعام بارد يكفي حتى موعد العشاء... أثناء تحضيرك هذا سأرافق نيكول إلى غرف النوم حيث ستنام هي ودايفد. هل هي محضرة؟

في صوته تحدٍ صامت، كأنما يتحدى عمته أن تعلق على شيء شخصي... لكن فم المرأة تصلب في خط رفيع قبل أن ترد بالإيجاب.

في الطريق عبر ممر الجناح الغربي للمنزل، أشارت غلينا على استحياء إلى غرفتها التي بدت ذات طابع نسائي ناعم وألوان زعفرانية صفراء، مزينة بورود ذهبية وكانت غرفة دايفد ملاصقة لها... ألوانها حمراء وزرقاء وبيضاء متناسقة مع

الستائر والسجادة... بدت غرفة صبيانية مميزة. لكن ما لفت انتباهه، كان قطاراً اصطناعياً في الزاوية... انتظر صابراً وغلينا تديره له.

عندما فتح مارك باب الغرفة المواجهة لغرفة دايفد... طغت عليها الدهشة والاعجاب... فالأثاث الخشبي السنديانى يحتل الغرفة... واللون الذهبي الغني كان يعكس الظلال على السجادة الذهبية الخضراء الباهتة... والستائر التي تعلو الأبواب الزجاجية العريضة لها اللون الذهبي نفسه.

تنهدت نيكول بنفس عميق، غير قادرة على زحزحة نظرها عن الأثاث الرفيع الذوق:

ـ هل... كانت غرفة عمتك؟

ـ لا... استخدمت دائماً الغرفة القريبة من المطبخ، المخصصة كجناح للخدم، ولم استطع قط اقناعها باستخدام إحدى هذه الغرف، خاصة بعد أن كبرت غلينا. لكنها أصرت على أنها تحتاج إلى خلوة خاصة بها.

سارعت نيكول إلى القول:

ـ ربما يجب أن أحذو حذوها.

كانت تريد يائسة أن تنعم بفخامة هذه الغرفة... لكنها كانت تتساءل في الوقت نفسه عما إذا كانت بهذا تطلب الكثير... فهي في الواقع ليست سوى مدبرة منزل.

فرد عليها مارك بنعومة:

ـ لا... أنت زوجتي... ومكانك هنا. ثم، يجب أن تكوني قرب الصبي إلى أن يعتاد على محيطه الجديد.

ـ نعم... بالطبع.

ـ ستريك غلينا غرفة الطعام... لا بد أن روز قد حضرّت المرطبات الآن.

استدار نحو الباب، لتلحق به متسائلة:

ـ ألن تكون معنا؟

ـ أريد تفقد بعض الأشياء مع دوغلاس أولاً.

راقبته وهو يبتعد في الممر، ثم لفت نظرها أبواب في الجهة المقابلة، فتساءلت أيهما باب غرفته... ثم، أخرجها من تفكيرها صوت صفير القطار اللعبة، فانضمت إلى دايفد وغلينا، وتركت دايفد بضع دقائق يشرح لها كيف يدير القطار قبل أن تقترح على غلينا الذهاب إلى غرفة الطعام. وفي نيتها أن تطلب من السيدة فريغسون أن تريها ما تبقى من المنزل بعد تناول الحلوى والشراب.

التفت دايفد إلى غلينا بعد إنهاء شرابه:

ـ هل أنت جاهزة للعودة إلى اللعب؟

ـ لا... فعلي مساعدة عمتي روز في رفع الأطباق أولاً.

فتدخلت نيكول بلطف:

ـ إذا كنت لا تمانعين غلينا... سأساعدها، كي تتمكن من اعطائي فكرة من محتويات المطبخ... فهل ترافقين دايفد لتريه المنزل والفناء؟

لم تتفوه المرأة العجوز بكلمة وهما ترفعان الصحون وتحملانها إلى المطبخ، الجميل العصري، الذي فيه كل التسهيلات التي قد ترغب فيها امرأة... تمتمت نيكول بدهشة

وهي ترى في سلة المهملات نفايات برتقال معصور.

ـ عصير البرتقال كان طازجاً؟

ـ مارك يحب أن تكون الفاكهة طازجة... يرسل شاحنة إلى وادي ستشوان أسبوعياً لتحميل الخضار والفاكهة الطازجة.

ـ ألا يمكن شراؤها محلياً؟

ـ ممكن... لكنه لا يقبل إلا الأفضل.

ـ لا بد أن هذا يكلفه كثيراً.

ـ بإمكانه تحمل تلك المصاريف.

ـ أجل أعتقد هذا.

وضعتا الأطباق في غسالة الصحون الآلية، وأدارتها روز قبل أن تبدأ في شرح روتين المنزل لنيكول. بينما كانت تنظف طاولة المطبخ انهت كلامها:

ـ لقد نقلت معظم أغراضي إلى المنزل القديم بعد أن اتصل مارك بي يوم أمس. سأبقى هنا الليلة لأساعدك في وجبة المساء وتحضير الفطور في الصباح... وبعدها أتركك وحدك.

كان عدم موافقتها على زواجهما المتسرع واضحاً في لهجتها. ثم تحركت إلى الفرن لتمسح سطحه، وقالت متجهمة:

ـ أعرف لماذا تزوجك مارك. عندما يريد يستطيع إقناع أي إنسان... لكنني لم أشاهد حباً أو ادعاء حب في عينيك عندما نظرت إليه... فلماذا تزوجته؟ أمن أجل ماله؟

أذهلها السؤال الجريء. فلم تتوقع من العجوز أن تكون وقحة إلى هذا الحد في ابداء ما تفكر فيه فما كان منها إلا أن رفعت رأسها بكبرياء.

www.elromancia.com

ـ كان زواجنا مصلحة مشتركة، فهو يحتاج إلى من تعتني بمنزله وبابنته... في حين أنني ودايفد نحتاج إلى منزل... لذا لم يكن السبب ماله بقدر ما كان الوعد بالأمان.

تفرست روز بها فترة قبل أن تستدير عنها:

ـ لقد ربيته طفلاً... وكنت في ما مضى ألوم أباه وأذكره أن ابنه من آل هاموند العائلة التي استوطنت هذه المناطق قبل أي إنسان آخر لكنني أظنه ولد مختلفاً أصلاً. إنه بارد دون قلب... لذا ستندمين على اليوم الذي تزوجك فيه.

سرت قشعريرة في جسد نيكول وهي تلاحظ نقص «الإمكانيات» في كلام المرأة... لم تقل «ربما» أو «قد» بل كلام كالنبوءة يحدد الحقيقة دون أي داع للتشكيك. لكن... موافقة مارك عليها أو مشاعره نحوها لن تكون مهمة لها. فستعمل مدبرة منزل له، تعتني بابنته. أما المكافأة التي تنتظرها فرؤية دايفد ينال كل شيء تريد أن تقدمه له: المنزل، والأمان، والمستقبل.

التفتت نيكول عند سماع صوت دايفد يأتيها من الخلف.

ـ ما بك دايفد؟

ـ تعالي وانظري بركة السباحة! إنها في الفناء الخلفي!

ـ سألحق بك. فعلي مساعدة السيدة فريغسون أولاً.

فقالت المرأة:

ـ هيا... اذهبي. لن ابدأ بتحضير العشاء قبل الخامسة... بإمكانك عندها العودة لمساعدتي.

ـ حسناً.

ضحكت نيكول غير قادرة على تجاهل الإثارة في عينيه اللامعتين... ولحقت به ممسكاً بيدها.

كانت مقدمة المنزل صورة عما يجب أن تكون عليه الحدائق النادرة الوجود... فالنبات المتعرش المزهر يغطي الجدران ورائحته العطرة تختلط مع روائح أخرى تدير الرؤوس... ولون نبات الشجيرات الشوكية القرمزي مع ألوان شجرة الميموزا ذات الأغصان المتدلية... وفي نهاية الممر، كانت بركة سباحة، يعكس سطح مائها الساكن زرقة السماء.

جلس الثلاثة على غصن شجر بلوط منخفض ينعمون بالهدوء وجمال المنظر. لكن سرعان ما تبدد كل هذا عندما سئم دايفد وغلينا الهدوء، فاحضرا كرة كبيرة ليلعبا بها بينما أخذت نيكول تراقبهما مسترخية... فأحست بكل متاعبها تتلاشى... ولم تلاحظ مضي الوقت إلا بعد أن نظرت إلى ساعتها لتعرف أنها تجاوزت الرابعة والنصف.

نزلت عن الأرجوحة التي أمضت وقتها فوقها، فنادت الولدين قائلة إنها ستذهب لتساعد العمة في تحضير العشاء... عندما دخلت المنزل عبر الباب الزجاجي إلى غرفة الجلوس، سمعت صوت سيارة مسرعة تدخل الطريق الداخلية ثم يتعالى منها صوت الزمور. فسارعت عبر الغرفة نحو النافذة لترى من القادم.

عندما أبعدت الستائر، شاهدت مارك ودوغلاس يتقدمان عبر الأشجار... بينما غيمة من الغبار تنتشر حول سيارة أجنبية

الطراز توقفت فجأة في الطريق... فخرجت منها امرأة طويلة، شعرها أصهب لمّاع، ترتدي قميصاً قصيراً يصل إلى الخصر وسروالاً أبيض يستريح باسترخاء عند ردفيها.

تنفست نيكول بحدة عندما رأت المرأة تسرع وكأنها في شوق إلى مارك. فوضعت يدها على صدره ورفعت له رأسها مبتسمة... لكنها لم تتوقف عند هذا، بل عقدت يديها حول عنقه، وضغطت، بكل قصد ونية، جسدها فوق جسده.

توقف دم نيكول عن الجريان في عروقها عندما رأت يد مارك تستريح فوق خصر المرأة العاري... وعدم اعتراضه على حركاتها أشعل غضباً شديداً في نفسها لم يخف حتى عندما أبعد نفسه قليلاً عن المرأة... لكن نيكول لم تترك الستائر تسقط من يدها قبل أن يلتفت مارك نحو المنزل... فإذا لم يشاهدها مارك تقف عند النافذة، فلا شك أن دوغلاس فعل.

أخذت نيكول ترتجف من الغضب... إذا كان مارك قد تزوجها ليمنع الشائعات التي قد تثور عندما تسكن في منزله كمدبرة منزل فقط... فبالتأكيد يحق لها الاحترام كونها زوجته لأن فعلته هذه بالذات، وعدم محاولته ردع تلك المرأة خير برهان على عدم اهتمامه بها أو تعرضها للسخرية.

كان هذا اكتشافاً مؤلماً... كاكتشاف الأفعى في جنة عدن. لقد اعتقدت أنه سيظهر لها احتراماً لأنها زوجته لكن افتراضها كان في غير محله.

ابتعدت عن النافذة ثم وقفت تدير ظهرها إلى الخارج...

لكن ما هي إلا فترة وجيزة حتى سمعت صوت إقفال باب سيارة انطلقت مبتعدة فوق حصى الطريق. نبهها فتح باب المنزل وإقفاله إلى أنها ما تزال واقفة قرب النافذة... وقد تأخر الوقت للابتعاد عنها... فرفعت رأسها بكبرياء وتحد تستعد لمواجهة دوغلاس.

لكن مارك كان الداخل إلى غرفة الجلوس... متحفظاً، وسيماً، ومتعجرفاً... راحت عيناه تنتقلان من نيكول إلى النافذة، ثم إلى وجهها ثانية. فابتسم دون إظهار للمرح:

ـ قررت جانيت عدم البقاء.

الطريقة التي نطّق بها اسم الفتاة التي كانت منذ قليل بين ذراعيه، أرسلت قشعريرة غضب في عروقها... فلمعت شرارات صفراء في عينيها ورفعت حاجبيها بسؤال متعجرف مصممة على أن تظهر له أنها ليست ممسحة أرجل قد يدوسها متى شاء:

ـ جانيت؟

ـ إنها جانيت والترز... ابنة جار من المزارعين.

كان قد دنا منها حتى وقف أمامها... فكان أن تركزت عيناها على غير إرادة منها على الخطوط القاسية حول فمه، تفتش عن أثر حمرة شفاه المرأة الأخرى... وقالت ساخرة:

ـ إنها أكثر من ابنة جيران... بالطبع.

وكأن كلامها الساخر سلاّه:

ـ هذا ما تعتبر نفسها على ما أعتقد.

www.elromancia.com

ذكرها مرة أخرى ببرودة وبحدة أنه لا يكترث بمشاعر كائن بشري آخر... فأشاحت بنظرها عن عينيه الساخرتين. وسألت ببرود:

- أين هو دوغلاس؟

فضحك بخبث:

- أظنه اعتقدك محرجة.

- لأنني شاهدتك تعانقها؟

هزت كتفيها متظاهرة بأن المنظر لم يهمها مطلقاً... فقال مارك وكأنه يصحح لها خطأ.

- في الواقع... كانت هي التي عانقتني... لا العكس.

فاستدارت ترتجف من الغضب وتقول بحدة:

- لكنك لم تمانع!

- وهل أزعجك هذا؟

- بالطبع لا!

- لماذا أنت غاضبة إذن؟

كادت نيكول تقول إنها ليست غاضبة... لكن العكس كان ظاهراً على وجهها... فالتفتت إليه تكبح أعصابها لئلا تثور:

- لم أكن أعلم أنك ستذيع على الملأ أنني لست سوى مدبرة منزل ومربية أطفال لا تستحق الاحترام كونها زوجتك.

فقال ببرود وهو يظهر ازدراءه من الفكرة.

- أتريدين أن نتظاهر بأننا نهتم ببعضنا بعضاً؟ أم تريدين إظهار عواطفنا أمام عيون الناس؟

- لا... لا أعني هذا أبداً. لكنني لا أرغب في أن أكون

سخرية أحد في مجتمع يجب أن ينشأ فيه دايفد ويترعرع.

- حملك اسمي قانونياً سيعطيك الكثير من الاحترام.

فالتوى فمها ساخرة:

- ويجعلني كذلك موضوعاً للشائعات.

- هل تهتمين بما يقول الناس؟

- طبعاً إذا كان ذلك يؤذي دايفد.

- أتحسين بالهجر والتجاهل لأنني لم أعانقك وأقبلك بعد، مع أنني قلت لك إنك مرغوبة؟

- قلت لك إن ما أتوقعه... الاحترام. لا شيء غيره.

- أيعني هذا أنك لم تتوقعي أن تكوني المرأة الأولى التي أقبلها بعد الزواج؟

رفع اصبعه يلمس حرارة وجنتيها اللتين اصطبغتا بحمرة الخجل لأنها تذكرت أنها توقعت منه قبلة بعد مراسم الزواج. قبلة لا معنى لها، لكنها تحافظ على المظاهر. نظرت إلى عينيه الزرقاوين المنعزلتين، وبقيت دون حراك وهو يلمس مداعباً وجنتيها وفكها فصممت على أن تظهر له لامبالاتها تجاهه... لامبالاة كلامبالاته.

- ربما يجب علي أن أصلح هذا الخطأ.

لم يكد يتلفظ بكلماته حتى أطبقت يده بقوة على ذقنها... فاتسعت عيناها دهشة وارتفعت يداها إلى صدره تدفعانه عنها... لكن هذه الحركة كانت دون جدوى، فقد التفت ذراعه حولها يمنع ابتعادها عنه.

سرعة حركته كانت مقصودة. فأدركت أنه مصمم على

www.elromancia.com

السيطرة على نفسه... لذا لم تحاول مقاومته... فالخضوع واللامبالاة أفضل رادع لعناق غير مرغوب فيه.

لكن مظهره البارد المتحفظ لم يهيئها لحرارة ودفء ذراعيه... فقد توقعت أن تكون مداعباته وقبلته عنيفة قاسية، لا رحمة فيها... كمظهره... لا أن تكون مغرية غامضة تثير التجاوب. فأحست بالحرارة تجتاح جسدها وهو ينزل يده عن ذقنها إلى حنايا عنقها.

خبرته كانت أكثر مما تتوقع... فأصيبت بالدوار ولم تعد تعي ما تفعل... فهل تعلقت به واستجابت له؟ فالارتجاف الخائن في داخلها يقول إنها لا تذكر أنها فعلت. مع أن اللمعان الأخضر في عينيه وهو ينظر إلى شفتيها المكتنزتين المرتجفتين يدل على الرضى المتعجرف.

أرخى قبضته عنها وتراجع:

ـ لقد مضى وقت طويل منذ أن مسّك فيه رجل... أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ هذا مؤسف... ستكونين ممتازة مع بعض الخبرة.

عاد عدم الاكتراث إلى وجهه الوسيم... كقط جبلي وحشي سئم فريسته بعد أن تذوق دمها.

استشاطت غضباً على كرامتها، قبل أن تدرك أن الغضب لا طائل منه فقد تركها مبتعداً، واشعل سيكارة... بعد أن أيقظ مشاعرها!

ارتدت على عقبيها تتجه نحو المطبخ قائلة:

ـ سأذهب لمساعدة السيدة فريغسون في تحضير العشاء.

ـ أين غلينا والصبي؟

ـ اسمه دايڤد... ودايڤد مع غلينا يلعبان الكرة خلف المنزل.

كانت أول وجبة لها في المنزل ناجحة... فالطعام لذيذ، والصحبة بهيجة... فقد سيطر دوغلاس على معظم الحديث بسحره البسيط دون تحفظ.

لم يبق مارك صامتاً تماماً لأنه كان بين الحين والآخر يرد على أسئلة دايڤد المتعلقة بالمزرعة... وكان قادراً على الرد على كل أسئلته... فتساءلت نيكول بصمت إلى أي مدى سيستمر صبره تحت ضغط فضول دايڤد.

بعدما أزيلت الأطباق عن المائدة، ووضع التوت البري على الطاولة، مال دايڤد إلى الأمام ليسأل مارك الجالس على رأس الطاولة:

ـ هل ستصحبني لرؤية الأبقار والجياد غداً؟ غلينا رفضت مرافقتي اليوم لرؤيتها قائلة إنه ممنوع علينا الذهاب إلى هناك!

كانت لهجته أقرب إلى الأمر منها إلى الطلب، فسارعت نيكول بلهجة تود إسكاته فيها:

ـ دايڤد! السيد... مارك سيكون مشغولاً في الغد.

فسأله دايڤد وكأنه يريد سماع الحقيقة من فمه، متجاهلاً قول نيكول:

ـ هل ستكون مشغولاً؟

ـ على الأرجح سأكون مشغولاً في الغد. لكن ربما فيما

www.elromancia.com

بعد... سنرى.

ظهر الرضى على دايڤد... فتابع الطلب:

ـ هل أستطيع امتطاء الحصان؟

تنهدت نيكول ساخطة، مما جعل دوغلاس ينظر إليها مرحاً. وقبل أن تقاطعه قال له مارك:

ـ هل ركبت حصاناً من قبل؟

فرد ساخطاً بإحباط:

ـ لا!

فنظرت العينان الزرقاوان إلى نيكول.

ـ وأنت؟

ـ منذ سنوات بعيدة... ولكنني لم أتمرن كفاية.

فقال لدوغلاس:

ـ حضر لهما مطيتين مناسبتين.

فهز دوغلاس رأسه، يغمز دايڤد الجالس قربه مبتهجاً:

ـ أظنني أعرف تماماً ما يحتاجانه.

سألت نيكول محاولة إشراك الفتاة في الحديث:

ـ أتركبين الخيل يا غلينا؟

أدارت الفتاة نظرة متوترة نحو أبيها، الذي أجابها بسرعة:

ـ كانت تركب. لكن جواداً رماها عن ظهره منذ سنتين... لوى لها وركها... فلم تعد إلى الركوب منذ ذلك اليوم.

أحمرّ وجه غلينا من جرّاء سخرية أبيها. فأحست نيكول بقلبها يخفق عطفاً على الفتاة. فالخوف شيء رهيب... وغلينا

ليست مغامرة بطبعها... وهذا ما يزيد من شدة قبضة الخوف على نفسها.

●●●

www.elromancia.com

٥ ـ متى الخلاص؟

كانت الشمس قرصاً برتقالياً كبيراً يلوح في الأفق عندما انتهت نيكول من مساعدة السيدة فريغسون في تنظيف آخر طبق، لتخرج بعد ذلك باحثة عن دايڤد الذي سارع إلى القول إنه لا يحس بالتعب... لكن رافق قوله تثاؤب، جعلها تدفعه إلى غرفة نومه مكرهاً.

كانت قد انتهت من وضع ثيابه في الأدراج عندما عاد من الحمام:

ـ لقد اغتسلت جيداً! هل تقرئين عليّ قصة؟

ارتدت أهدابه الطويلة المقوسة فوق عينيه تخفي لمعان الاعجاب قبل أن تنتهي الساحرة من تحضير العربة والجياد لساندريلا بوقت طويل... دثرته نيكول بالأغطية جيداً ثم طبعت قبلة على جبينه. وسارت على أطراف أصابع قدميها خارج الغرفة.

قبل أن تصل إلى غرفتها. أطلت على غرفة غلينا، التي كانت تجلس في فراشها تحمل كتاباً مفتوحاً على ركبتيها. شعرها ذو الضفائر عادة، طليق ينسدل على كتفيها حتى خصرها في موجات ناعمة لماعة، جعل طوله وجه الفتاة يبدو أطول

وأنحف. فقررت نيكول بصمت، أن تقنع الفتاة بقصه في المستقبل عندما تتعارفا بشكل أفضل. ابتسمت نيكول لها:

ـ جئت أتمنى لك ليلة سعيدة.

ـ هل نام دايڤد؟

ـ يغط في نوم عميق... مع أنه قال إنه ليس تعباً.

ضحكتا بصوت منخفض، لتفهمهما سبب تردده في الذهاب إلى سريره. فجأة تلاشت الضحكة عن وجه غلينا، ونظرت باستحياء إلى نيكول:

ـ أنا... أنا سعيدة جداً لأنك ودايڤد معنا.

ـ وأنا كذلك... تصبحين على خير غلينا... أحلاماً سعيدة.

ـ تصبحين على خير... نيكول.

عندما فتحت الباب خارجة كانت عيناها تلمعان بالرضى... فدايڤد يتقبل بسرعة حياته الجديدة... وغلينا على وشك القبول بهما دون تحفظ... والمستقبل يبدو زاهياً براقاً أمامها.

كانت حقيبتها ما تزال عند قوائم السرير... عندما تقدمت لتفتحها شاهدت الباب الذي كانت تظنه باب خزانة مفتوحاً. السجادة التي ظهرت كشفت لها أنه ليس خزانة... فدفعها الفضول للدخول، تنظر بسعادة إلى الحمام الخاص الواسع الذي كانت جدرانه الثلاثة بيضاء في حين أن جداره الرابع مغطى بصورة منظر ريفي أخضر. لكن أكثر ما كان في الحمام من أشياء عجيبة، هو المغطس العميق الكبير.

كانت مناشف حمام سميكة تتدلى من مشاجب ذهبية في حين كان الرف الزجاجي القابع قرب المغطس يحتوي على صابون أصفر ذهبي على شكل الورد، وقربه زجاجة عطر اللافندر. ما من شك في أن كل هذا هدية من السيدة فريغسون.

كان التفكير بالاسترخاء في دفء ماء المغطس المعطر أكثر إغراء من فتح الحقائب...

أدارت صنابير الماء المذهبة وعدّلت حرارة الماء، مضيفة ملح اللافندر بسخاء... ثم قصدت غرفة النوم. فأخرجت ثوب النوم الأصفر الذهبي من أصغر حقيبتيها وحملته مع حقيبة أدوات الزينة إلى الحمام.

بعد حوالي الساعة، كانت تقف أمام المرآة القريبة من المغطس تعصر شعرها وتحس بالنشاط والنظافة، والأنوثة... حاولت أن تذكر آخر مرة أحست فيها بالراحة فبدا أنها لم تنلها منذ زمن طويل، ثم نظرت نظرة رضى وابتسمت قبل أن تطفىء مصباح الحمام قاصدة غرفتها.

ما إن دخلتها حتى تسمّرت في مكانها دون حراك فقد رأت مارك يقف قرب السرير يرمي قميصه على المقعد... فسألته بلهجة أقل قليلاً من آمرة، محدقة دون تصديق إلى جسده النحيل وصدره العاري:

ـ ماذا تفعل هنا؟

نظر إليها شزراً وهو يكمل فك حزامه ليخلع بنطلونه:

ـ أستعد للنوم.

ـ لكن... لكن... هذه غرفتي.

ـ أجل... إنها غرفتك... أيضاً.

ـ أيضاً؟ لكنني ظننت...

استدار مارك ببطء، يتأمل وجهها المذهول:

ـ ماذا ظننت بالضبط؟

أحست نيكول بالدوار أمام نظرته، فأمسكت يدها دون وعي فتحة ياقة ثوبها، محاولة التوصل إلى هدوء بعيد كل البعد عما تشعر به... ثم تنفست عميقاً... لكن الضحكة الساخرة القصيرة التي تلت حركتها هذه جعلتها تحس بالذعر.

ـ هل كنت تؤمنين حقاً بأن هذا سيكون زواجاً اسمياً فقط؟

هيّجت سخريته غضبها، فقالت:

ـ ليلة أمس...

فقاطعها بسرعة.

ـ ليلة أمس لم أستطع تأمين الخلوة المناسبة.

ـ إذن فاعلم أنني لن أنام معك. ربما تزوجنا رسمياً... لكننا لسنا زوجاً وزوجة.

ـ صح... لم نصبح بعد.

ـ ولن نصبح أبداً!

وبسرعة الفهد، أمسك بيدها وادارها إليه بعد أن استدارت تفتش عن مهرب منه:

ـ هل توقعت حقاً أن تعيشي في هذا المنزل عشر سنين أو يزيد دون أن ألمسك؟

وأطبقت يده الأخرى على خصرها تشدها إليه قبل أن

يكمل:

- أنا رجل نيكول... ومن الطبيعي أن يكون لي حافز لأمتلك امرأة جميلة جذابة مثلك، ولن أحرم نفسي منك أبداً.

لم تكن نيكول تدري ما إذا فكرت في هذا من قبل... لكنها نظرت إليه ببرود وحدة:

- أنا لست جارية لديك لتستعبدني متى شئت... ربما قدمت لي ولدايفد المأوى والأمان... وأنا شاكرة لك هذا... لكن، حتى العرفان بالجميل لن يجعلني أخضع لك. فأنا فتاة لم يمسني رجل قط من قبل... وإذا حاولت سأصرخ.

فهمس بصوت رقيق:

- ومن سيسمعك؟ روز في الجهة الأخرى من المنزل... تغط في النوم، دون شك، وسمعها لم يعد دقيقاً كما كان... أما إلى منامة العمال فلن يصل. إذن الوحيدان اللذان سيسمعان صراخك هما غلينا ودايفد.

صدق كلماته جعل وجهها يشحب، فاحتل الخوف مكان الغضب وهي تتفرس فيه بحثاً عن أثر الرحمة في وجهه فإذا بها لا تجد شيئاً منها بل الشيء الوحيد الذي بعث فيها الأمل هو فقدان وميض الرغبة من عينيه:

- أنت لا تريدني.

- أنا لا تحكمني الرغبات. خاصة إذا كنت صادقة إن ما من رجل مسك من قبل.

حاولت دفع صدره ليبتعد عنها. لكن قوته فاقت قوتها. فسحقها على جسده، حتى كاد يقطع فيها أنفاسها... وقال

بكل هدوء:

- إذا قاومتني... فأضطر لاستخدام العنف. أما إذا تركتني أفعل ما أشاء سأكون رقيقاً معك.

بدا ضجيج ضغط الدم في أذنيها وكأنه يحرم سائر جسدها من القوة. في حين أن قبضته الحديدية أحرقتها واجتاحت كيانها... فلم تعد تحس أو تعي شيئاً سواه. ردّت رأسها إلى الوراء قدر استطاعتها. بل قدر ما سمحت به قبضته عليها.

- كيف لك أن تجبرني على هذا؟

- لأنني سأبدأ هذا الزواج كما يجب أن يستمر.

بينما كانت تلوي رأسها تهرباً منه، لوى ذراعيها خلف ظهرها فأمسك بهما بيد واحدة. ثم تحركت يده الثانية إلى عنقها تبعث فيها رعدة تلو رعدة شلتها حتى أحست بيد تمتد إلى رباط فستانها.

- لا!

خرجت الصرخة تمزق حنجرتها بذعر يقطع الأنفاس ثم رفسته على ساقه... فبدا الألم على وجهه... لكنه بدل أن يرخي قبضته حملها بين ذراعيه ورماها على السرير.

فراحت هناك تقاومه بكل ما أوتيت من قوة: رفسته، خدشته كقطة متوحشة فأحست بالدم اللزج الساخن تحت أصابعها على كتفيه. وظهره... لكن عنفها هذا لم يؤد إلا إلى امتصاص كل حيوية وطاقة لديها، حتى تمددت أخيراً متعبة مرهقة فوق السرير، وذراعاها فوق رأسها يقبض مارك عليهما بقوة بينما ثوب نومها مرمي على الأرض.

www.elromancia.com

- توقفي عن المقاومة... ستؤذين نفسك!

- وأنت... ألن تؤذيني؟

أخطأت عندما أدارت رأسها لترد عليه... إذ سرعان ما أطبق عليها... وما هي إلا لحظات، وتحت تأثير الارهاق الشديد والتعب القوي، حتى أحست بدوامة تبتلعها وتجذبها إلى عتمة حارقة.

استلقت نيكول فيما بعد، حيث تركها على الفراش... تحاول بجهد استعادة وعيها من الدوامة التي كانت تدور بها. كان جزء منها ليس فيه سوى كره شديد تجاه الرجل الذي جعلها زوجته بالفعل. أما الأجزاء الأخرى فكانت تحاول التخلص من صدمة ما حدث... لكنها لم تكن صدمة كما ظنتها.

جعلها هذا الاعتراف تكره نفسها وتكره مارك أضعافاً... لو أن الدموع تمحو ما حدث لبكت... لكنها تكورت على السرير ككرة بائسة مهجورة... وسمعت صوت روز فريغسون يقول لها: «ستندمين على اليوم الذي تزوجته فيه»...

- نيكول...

أطبقت أصابعه على ذراعها وهو يحدثها. بلهجة متحفظة، دون النظر إلى الوضع الحميم الذي كانا فيه منذ لحظات.

- اتركني وشأني...

رده كان أن عاقبها بتثبيت كتفيها على الفراش بقساوة.

- انظري إلي...

عندما لم تفعل أمسك بذقنها ليلوي وجهها نحوه:

- قلت لك انظري إلي!

بدت الكراهية واضحة على وجهها عندما نظرت إليه... فقالت له باشمئزاز:

- لا تلمسني.

ضغطت يداه عليها بقسوة يذكرها بفاعلية أنها ليست في وضع يسمح لها بإصدار الأوامر. فتنفست بحدة. لكنها لم تحاول الابتعاد فلا طائل من المحاولة.

- أعلم فيما تفكرين!

- أتعلم حقاً؟

- تفكرين في الهرب... لكن إلى أين؟ لن تستطيعي العودة إلى شقتك لأنك تعلمين أنني سألحق بك إليها. وليس لديك المال الكافي لاستئجار غرفة أخرى. ودون عمل، لن تستطيعي إعالة نفسك ودايفد؟ أم لعلك تنوين تركه هنا؟

- بالطبع لا.

عضت على شفتها بسرعة، لكن الوقت فات لتتراجع عما اعترفت به.

- ماذا ستكسبين بهربك؟ هل سيغير الهرب ما حدث الليلة؟ هل يمكن أن تنسي أن ما حصل قد حصل؟

كان يعلم ما سيكون عليه ردها... فأغمضت عينيها بقوة لئلا ترى الحقيقة، أو تضطر للاعتراف بها. أردف:

- لم يتغير شيء... ما زال لك الأمان الذي تريدينه لك وللصبي. كما لك الخلاص من الحاجة والحرمان، ومنزل وملابس محترمة.

- لكن... انظر إلى الثمن الذي دفعته!

كان صوتها مختنقاً، متهدجاً، في حين أن عينيها ما زالتا مغمضتين تجنباً لصورة هذا الوجه الوسيم... فرد ساخراً:

ـ لكنني لم أكن أعرف هذا حتى الليلة. هل كنت تنوين البقاء عفيفة طوال حياتك؟ أم كنت تفكرين في شخص آخر وأنت تحرمين زوجك من حقه الزوجي؟

ـ أنا لم أفكر في الأمر قط.

ـ نحن متزوجان... وهذا واقع لا يمكنك تجاهله.

ـ وأنت لن تدعني أنساه.

ـ لا... لن أدعك أبداً لذا توقفي عن رد فعلك الهستيري الذي لا تشعرين به. كلانا يعلم أنك لم تكوني كارهة كل الكراهية... ولا حاجة للادعاء... هروبك من هنا لن يحقق لك شيئاً... نامي الآن... ودعي امرأة أقدر منك في التمثيل لتحتل دور الأنثى الرافضة الغاضبة.

جاءها النوم السريع، الذي حرمها من فرصة التفكير في الحل البديل. ولم تصحُ منه حتى الصباح عندما أحست بالشمس تدق أبواب عينيها المغمضتين... لكنها أحست بأن هناك شخصاً آخر معها في الغرفة.

عادت أحداث الليلة الفائتة تمر أمامها بسرعة، ففتحت عينيها مذعورة... فركزتهما على الوسادة الخالية أمامها.

ـ لقد استيقظت أخيراً.

لكنه كان صوت امرأة ذاك الذي سمعته في الغرفة... فاندفعت تجلس منتصبة... تجر الأغطية معها... وقد طغت على وجهها حرارة الإحراج، فرفعت يدها تدفع شعرها المشعث

إلى الوراء ثم سألت روز فريغسون:

ـ كم الساعة الآن!

ـ تقارب العاشرة. أمر مارك بعدم إزعاجك. لكنني ظننتك بحاجة إلى الحمام وإلى ارتداء ملابسك قبل الغداء سأبقى اليوم أيضاً لأعده... فلا تقلقي نفسك به.

ـ شكراً لك... أين هو دايفد؟

ـ صحبه مارك هذا الصباح. هل ترغبين في فطورك؟

ـ لا... قهوة فقط.

هزت روز رأسها وغادرت الغرفة. فلّما أنزلت قدميها عن السرير أحست نيكول بألم في عضلاتها... إنها بحاجة إلى نظافة مياه المغطس لتستطيع مواجهة يومها.

إنه دائماً يسبقها في التفكير... تركها تنام متأخرة لتعرف عمته أنه شاركها الفراش... بعد الاستحمام وارتداء الثياب، نزلت إلى المطبخ حيث وجدت المرأة تحضر الغداء...

كانت نيكول تحضر أطباق المائدة عندما دخل دايفد عاصفاً عبر الباب الأمامي... صارخاً بإثارة:

ـ نوني... ! نوني!

انحنت بسرعة لتستقبل عناقه السريع وبقيت راكعة لتبقى على مستواه... ابتسمت له ابتسامة ملؤها الحب وهي تنظر السعادة التي تكاد تقفز من عينيه.

ـ أوه نوني! كان يجب أن تكوني معنا! ذهبت لرؤية الجياد وحظائر الماشية. ووجار الكلب وكل شيء! و... و... ومارك... سوف يصحبني لأرى الأبقار وصغارها بعد الظهر.

ارتفعت عينا نيكول إلى الرجل الواقف وراء دايفد، عند باب غرفة الطعام... ثم تقدم إلى داخل الغرفة قائلاً:

- سأصحبه شرط أن لا تعترضي.

فتوسل إليها دايفد:

- سأذهب... ألن تأذني لي؟

نظرت نيكول إلى مارك وقالت متجهمة:

- وهل سيهمك اعتراضي؟

ضاقت نظرته وازرقّ لون عينيه حتى بات قاتماً...

- إذا كان لديك خطة أخرى... فقولي.

تجاهلت متعمدة تحديه، وابتسمت للصبي:

- اذهب واغتسل الآن... سنتحدث عن المسألة عند تناول الغداء.

لكنه تردد وكأنما يرغب في وعد فوري... ثم ركض نحو غرفته. فانتصبت نيكول واقفة، ترفع رأسها ثم قالت له:

- أنت لا تلعب ألعابك بانصاف.

- أنا لا «ألعب» في شيء!

فارتفع صوتها:

- أنت تعرف جيداً ما أقصد! كل صبي صغير يحلم بأن يكون «كاوبوي»... وأنت تتعمد أن تظهر لدايفد أن حلمه يمكن أن يتحقق بالبقاء هنا.

- وهل هناك شيء بشأن إرادتك أنت في البقاء؟

أحست بألم حاد في صدرها وقد أدركت أنها داخلياً قبلت هذا الواقع. وكان اكتشافاً يثير الاضطراب. فالاعتراف بأن كل

احتجاجاتها كانت دون طائل ضايقها نفسياً لكنها لن تذكره أمامه.

رغم افتقار مارك إلى الإحساس. كان قوياً. وفي المدة القصيرة التي عرفته فيها، تعلمت كيف يمكن الاعتماد على رجل يتخذ هو القرار. لذا، وبينما كانت تلعن ضعفها، قررت أن لا تكشف هذا الضعف أمامه... فلتتركه يعتقد أنها في يوم من الأيام ستهرب منه... إذ ربما يوماً قد تجد القدرة عليه. لكنه كان ينتظر رداً على سؤاله:

- أريد رداً نيكول.

عندما لم ترد، وبدأت تسير مبتعدة... أطبقت أصابعه على ذراعها... كانت قساوة قبضته كالكلاليب... فتذكرت تجاوبها معه. فحاولت جذب ذراعها منه تقول بغيظ وكره.

- لا تلمسني!

عندما فشلت... ارتفعت يدها الأخرى تصفع وجهه... لكن حركتها توقفت في الهواء وسقطت في قبضته، ثم لوى يدها إلى ما وراء ظهرها فالتصقت به مقطوعة الأنفاس من جرّاء الحركة المفاجئة. فقالت بصوت ناعم:

- أنت حيوان مقرف!

فضحك بسعادة. وسخرت منها عيناه:

- وأنت قطة متوحشة! كم أمتعني ترويضك ليلة أمس.

- اتركني! أكرهك! لا أريدك أن تلمسني!

سمعا حركة وراء مارك. فظنت نيكول أن دايفد قد عاد لكن وجهها التهب حرجاً عندما شاهدت دوغلاس وحاجبيه

المعقودين دهشة... يتردد في الدخول أيقاطعهما أم يغادر الغرفة قبل أن يلاحظا وجوده؟...

التفت مارك ليرى سبب ذهولها... فلاحظت نظرة التحدي التي رمق بها دوغلاس وكأنه يتحداه أن يتدخل. ثم عادت نظرتها من جديد إلى دوغلاس فوجدت المرح قد طغى على أساريره، وحلّت البسمة مكان التجهم... ثم قال وهو يتقدم ليدخل غرفة الطعام:

- أول خصام لكما... هيه؟ سمعت أن هذا أول دليل على أن شهر العسل قد انتهى.

التفت مارك إلى نيكول ليقول لها بصوت لا يصل إلى مسمع دوغلاس:

- هل تودين الهروب إلى منزل أمك؟

بقي مارك ممسكاً بذراعيها إلى الوراء... فراحت تجذب نفسها مبتعدة... متجاهلة استهزاءه بها...

- عليّ أن أساعد السيدة فريغسون.

كان عذراً مضعضعاً... لكنه الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه.

●●●

٦ ـ لماذا أنتَ؟

استمرت الحياة في وتيرة مريحة بالنسبة لنيكول. مع أن كبرياءها كانت تطالب بالتظاهر عكس هذا، إلا أنها أشغلت نفسها في أعمال المنزل الرتيبة من العناية بغلينا ودايفد، إلى تحضير وجبات الطعام... وهذا ما تمتعت كثيراً به. إذ لم تكن قط ميالة إلى حياة العمل والوظيفة بل كانت ترغب دائماً في منزل وعائلة... وبما أنها حصلت على ما تريد الآن. فقد امتلأت نفسها برضى قد تشعر به الكثيرات من بنات جنسها.

لم يتم كل شيء أمامها بسهولة، فعندما غادرت روز المنزل... حصل بعض الارتباك. لكنها بسرعة وجدت طريقها... ثم واجهتها مهمة إرسال دايفد إلى صف المبتدئين في المدرسة المحلية.

أعطاها مارك كامل الثقة، إضافة إلى مفاتيح السيارة. مع لائحة بكل المخازن التي له فيها حساب... بشكل عام، تركها تفعل ما تشاء، ما دامت تحافظ على اتفاقهما.

خلال النهار لم تكن مضطرة لتحمل وجوده معها وحدهما. فهو لم يكن يظهر إلا في أوقات الطعام، برفقة دوغلاس... أما في الأمسيات، فكان يقضي وقته كله في المنزل، لكنه كان

www.elromancia.com

يقضيه مع غلينا ودايفد... ولم يطلب منها الصحبة قط... ولا أظهر الرغبة في إقامة علاقة ودودة معها.

عندما كانا ينفردان، لم تكن تتردد في إظهار كرهها له. لكن حرارة قبلاته وعناقه كانت دائماً تنتج رد فعل فيها يخرجها عن حدود السيطرة.

كانت نيكول تعيد المكنسة الكهربائية إلى الخزانة، عندما سمعت الباب ينفتح ثم ينغلق. فنظرت بسرعة إلى ساعتها، متسائلة ما إذا كانت قد تأخرت في تحضير الطعام قبل عودة غلينا ودايفد من المدرسة.

لكن وقتهما كان قريباً. لذلك تحركت بفضول إلى غرفة الجلوس. لكن خطواتها توقفت فجأة لدى رؤية المرأة الصهباء الحمراء الشعر تتجول في الغرفة بكل ألفة. إنها المرأة التي قال مارك إن اسمها جانيت والترز، وهي المرأة التي رمت بنفسها بين ذراعيه يوم وصولهما إلى المزرعة.

سألتها نيكول متصلبة باردة:

ـ هل أستطيع خدمتك؟

التفتت الصهباء إليها تحدجها بنظراتها... بدت رباطة الجأش، والدهاء والثراء، واضحة في وقفتها وثيابها وتسريحة شعرها... لكن رغماً عنها، رفعت نيكول رأسها قليلاً بكبرياء... فاجتذبت الحركة ابتسامة من الشفتين النحاسيتين، اللتين تمتمتا بود ظاهر:

ـ أنت السيدة هاموند بالطبع... أنا جانيت والترز أردت مقابلتك وتقديم التهنئة لك... وأرجو ألا تمانعي في دخولي

البيت هكذا. فأنا معتادة على الدخول والخروج متى شئت. ولم يخطر ببالي أن مارك لم يذكرني أمامك بعد.

ـ بلى... ذكرك... أليس أهلك جيراننا؟

كان غضب نيكول يرتفع ببطء حتى كاد يصل إلى درجة الغليان، يزيده ارتفاعاً تصرفات جانيت والترز المترفعة.

أردفت نيكول:

ـ أظنك زرتنا يوم وصولي. وأنا آسفة لأنني لم أقابلك وقتذاك.

ضاقت عينا المرأة وهي تنظر إلى نيكول، تنتقي كلماتها:

ـ لعل... ظهوري يومها لم يزعجك.

ـ لا... أبداً... على كل، ما كنت يومها تعرفين شيئاً عن زواجي.

طافت عينا جانيت الزمرديتان في الغرفة ثم اتجهت إلى نيكول لتقول:

ـ أليس بيت مارك جميلاً؟ هل أنت ممن يحب الحياة المنزلية؟

ـ أجل... أنا كذلك.

ـ أما أنا... فأكره رتابة المنزل... وسأكون زوجة سيئة. ثم أنه يُنظر إلى الزوجة على أنها مضمونة... وأفضّل أن يكون الرجل متحرقاً للوصول إلي. يسعى لإرضائي، بدل العكس... لا يجب أبداً أن يشاهد الرجل المرأة عندما تستيقظ في الصباح... فهذا يحطم أوهامه.

عرفت نيكول ما تعنيه المرأة تماماً... وعرفت أنها كانت

على الدوام عشيقته... لكن هل تحاول إثارة شكوك أخرى؟ أَوَ تقصد أن علاقتهما ما زالت قائمة؟

له أن يتخذ ما يشاء من عشيقات، لكن إذا كان يعتقد أنها يمكن أن ترحب بإحداهن في بيتها... نعم بيتها... فهو مخطىء وسيواجه صدمة فظة.

فرضت على نفسها ما استطاعت إيجاده من لباقة وقالت لها وكأنها تقترح على جانيت والترز أن تخرج من منزلها:

ـ آسفة... لكن مارك ليس هنا آنسة والترز. وأنا أعلم أنه سيندم لأن زيارتك فاتته.

إنها لن تعرض على حمراء الشعر أية ضيافة... لكن جانيت ضحكت ملء فيها.

ـ أعلم أنه سيكون آسفاً لعدم وجوده هنا... وأعتقد أن روحه المرحة القاسية ستجد أن لقاءنا مسل.

فتحدتها نيكول:

ـ صحيح؟

تجاهلت جانيت السؤال، ولمعت ضحكة صامتة في عينيها وهي ترى توتر نيكول.

ـ أعرف أن عبوديتك في الأعمال المنزلية تتطلب إنهاء آلاف الأشياء العالقة، فلن أؤخرك سيدة هاموند.

كلمة «عبودية» كانت اختياراً غير موفق... فرفعت نيكول رأسها وأحست كأنها قطة تتخلص من أوساخها بتوجه جانيت نحو الباب... لكنها ترددت عند الباب عن قصد، لتقول من فوق كتفها:

ـ أبلغي مارك... حبي! أيمكن؟ سأراه في المرة القادمة.

تسمرت نيكول في الأرض، تجمدت في غضبها، غضب منقسم بالتساوي بين مارك وجانيت ونفسها. عند إقفال الباب بقيت لحظات لا تعي أن دوغلاس دخل الغرفة حالما غادرتها جانيت:

ـ هل أنت بخير نيكول؟

ـ طبعاً.

الخط المتجهم الذي ارتسم على فمه جعلها تدرك أنها كشفت عن مشاعرها بردها الحاد. فقالت بعد أشاحت بوجهها عنه وابتعدت:

ـ هل ثمة ما تريده دوغلاس؟

كان عدم اكتراثها ظاهراً... وبقي هو في المدخل واقفاً يراقبها:

ـ لا... لقد لاحظت وجود سيارة جانيت عند الباب.

التفتت نيكول فالتقت بنظرته الحادة القوية... إنها ليست المرة الأولى خلال الأسابيع الأخيرة، التي تمنت فيها لو أنها عقدت هذا الزواج المبني على اللاحب على هذا الرجل القوي الهادىء بدلاً من مارك... لكن التمني لا يغير الواقع. هزت كتفيها لتقول:

ـ لقد توقفت جانيت هنا لتقديم تهنئتها.

فرد ساخراً:

ـ أراهن على هذا. ما تريده حقاً رؤية المرأة التي خطفت منها مارك...

www.elromancia.com

فضحكت نيكول بمرارة:

ـ خطفت؟ هذه مزحة! فأنا من خطفت ووقعت في الفخ.

سرعان ما ندمت على هذه الزلة... فغرقت مرهقة في أحد المقاعد، تضغط بيديها على خديها بعد إحساسها المفاجىء بألم في رأسها.

ـ أنا آسفة... ما كان يجب أن أقول هذا... فهو كلام غير صحيح.

ـ لا يمكنك التظاهر أمام الجميع نيكول. فوجودي معكما جعلني أعلم أنك ومارك لا تتصرفان كزوجين حديثي العهد بالزواج.

ـ أرجوك... لو قلت كلمة لطيفة أخرى، فسأجهش بالبكاء. لقد حصلت على ما كنت أريده ولن أبدأ بالندم.

هز دوغلاس رأسه متفهماً... ثم التفت قليلاً نحو الباب الذي انفتح ليدخل مارك الذي راحت عيناه الزرقاوان تنتقلان من نيكول إلى دوغلاس... ثم سأل:

ـ هل هناك شيء؟

فرد دوغلاس:

ـ لا... كنت على وشك المغادرة. سأراك الليلة نيكول.

عندما أُقفل الباب ثانية بعد لحظات، حدق مارك إليها مفكراً بصمت تسلل إلى أعصاب نيكول المتوترة. فقالت له:

ـ دوغلاس لا يأتي عادة إلى المنزل خلال النهار.

ـ ولا أنا... لكنني اليوم أريد الاغتسال وتغيير ثيابي قبل الذهاب إلى «ماديسون هات».

ابتعد عنها، وسار في الردهة متجهاً إلى غرفة نومهما. كانت أصابعه تعبث بأزرار قميصه لتفكها... فتعالى غضب نيكول بسبب تجاهله لها... وبما أنها... لم تكن في مزاج يقبل بأن يتركها دون اكتراث تبعته سائلة بنعومة متعمدة بعد أن توقفت داخل غرفتهما:

ـ هل أنت ذاهب مع جانيت؟

فضحك:

ـ كنت اتساءل كم سيطول الوقت قبل أن تتحدثي عنها.

ـ كانت هنا منذ قليل.

ـ أعلم.

خلع قميصه وجلس على حافة السرير يخلع حذاء العمل:

ـ كنت على وشك مغادرة منزل عمتي عندما وصلت جانيت. ألهذا السبب كان دوغلاس هنا؟ لانقاذك من بين براثنها؟

نهض عن السرير يخلع قميصه... فبانت آثار الخدوش التي تركتها أظافرها على ظهره. ثم أكمل:

ـ ربما لا يعلم دوغلاس أنك قادرة تماماً على الدفاع عن نفسك!

ـ إنه رجل مهذب يحترم نفسه أكثر منك.

فتطلع إليها دون اكتراث... رمى لها قميصه قائلاً:

ـ ضعي هذا في سلة الثياب الوسخة.

لفت نيكول القميص بين يديها، تفكر في قذفه به... لكن ما الفائدة ما دامت في النهاية ستلتقطه من جديد. كان يراقب

www.elromancia.com

تعابير وجهها. ويلاحظ الجدال الصامت العنيف الدائر في نفسها. فالتوى فمه راضياً عندما ابتعدت نحو السلة ترمي فيه القميص.

لكن نظرته الراضية الساخرة، جعلتها ترمي الحذر أدراج الرياح... فصاحت تخاطبه وارتدت ترميه بالقميص، الذي وقع عند قدميه.

ـ تخلص من ثيابك الوسخة بنفسك... فأنا لست خادمتك!

فقال باسترخاء:

ـ قالت جانيت إنك قد تكونين غاضبة.

دفعها الغضب عبر الغرفة لتقف على بعد قدم منه... وقبل أن يصل الضعف الذي سيطر على ساقيها إلى سائر أعضاء جسدها... ضربته. فأحست راحة يدها بلذعة عنيفة وبلذة غريبة. فحدقت فيه بكره هنا حيث رأت الاحمرار يغزو وجهه نتيجة الصفعة التي لم يحاول إيقافها قبل بلوغ وجهه... ثم أخذ اللون يتحول إلى أحمر قاتم بينما تحولت عيناه إلى لون ثلجي أزرق. وصاحت نيكول:

ـ لا أريد هذه المرأة في بيتي!

ـ بيتك؟

كانت نعومة صوته بنعومة حد السكين وهو يمر فوق المخمل.

ـ أجل... إنه بيتي... فأنا أنام معك قانونياً، مما يجعله بيتي بقدر ما هو بيتك... إذا لم يكن أكثر، لأنني أنا من يعتني

به... ولا أريد تلك المرأة أن تضع قدمها فيه مرة أخرى!

فاشتدت شفتاه فوق بعضهما لتشكلا خطاً رفيعاً ساخطاً... ثم قال بحنق وبهدوء:

ـ إذا رغبت... فستدخل وتخرج إلى هذا البيت ساعة تشاء.

فصاحت بشراسة:

ـ لا! فأنا لا أهتم بما لك من عشيقات... لكنني لن أتحمل ذل استعراضك لهن أمامي!

ـ الأشياء الوحيدة التي يمكن أن تتحمليها هي مالي وبيتي.

سخريته جرحتها فردت:

ـ ولمستك لي كذلك.

فالتوت شفتاه:

ـ ما الذي يجعلك تتظاهرين بالاستمتاع بمداعباتي إذن... أما زال في نفسك جزء عذري يرفض الاعتراف بوجود الرغبة؟

ردت رأسها إلى الوراء لتنظر إلى وجهه بازدراء:

ـ أيها الحيوان المتبجح المغرور! ما الذي يجعلك تعتقد أن فتنتك لا تقاوم؟

طافت عيناه في جسدها عن قصد، فأحست بالدماء تنتشر كالنار في عروقها... وسألها بهمس:

ـ هل أظهر لك لماذا؟

تشنجت أحاسيسها بارتباك، فخانت كبرياءها بينما قطعت نظرته الحادة أي قدرة لديها على الرد.

ارتدت نيكول بصمت متراجعة... لكن حركتها توقفت

عندما أطبقت أصابعه على ذراعها ليجذبها إلى الخلف، فحاولت بيدها المتحررة دفعه عنها لكنها كانت جهود لا طائل منها لأنه أضاف إلى ضغط يده على ذراعها ضغط يده الأخرى على ظهرها، ليسحقها على صدره القاسي.

لم يكن في عناقه البطيء سخرية... فهو يعلم إنه يفوقها قوة. لكنها حتى بعد أن حصلت على حرية يدها الأخرى، لم تستطع الابتعاد عنه. وبدأت مشاعرها تتحرك، وتتصاعد الرغبة في جسدها رغماً عنها... لن يمضي وقت طويل حتى تضيع بين ذراعيه.

- تباً لك! اتركني وشأني!

بدا همسها بكاء... فقال بصوت أجش وضحكة ساخرة:

- ليس بعد!

أطبقت أصابعها على ذقنه ووجهه محاولة دفع رأسه عنها وهي تشهق:

- أرجوك توقف! فلتأت جانيت متى شاءت بل فلتؤسس أنت بيت «حريم» إذا شئت. فلن أهتم لكن دعني وشأني!

- وهل أتجاهل زوجتي لأجل «الحريم»؟

- يجب أن تذهب إلى «مديسن هات» كما قلت!

- قبليني أولاً.

فصاحت بكل ذرة عناد فيها.

- لا.

فاشتد ضغط ذراعه على ظهرها بشراسة:

- قبليني! وإلا سأبقيك هكذا إلى أن تصل غلينا ودايڤد من

المدرسة!

أفلتت آهة عجز منها، وسرعان ما تضعضعت مقاومتها كلها، وقادتها الخبرة التي اكتسبتها من مارك لتفعل ما يريد. في البداية بقي جامداً دون حراك، تاركاً لها اكتشاف فن المبادرة بدل التجاوب.

لم تعد حركاتها تتبع أي إحساس أو تفكر... بالنسبة لها كان ما يحدث دائماً يشبه الغرق حتى الأعماق الذي يعقبه الظهور المفاجيء إلى السطح، حيث الشعور بعودة الحياة إليها.

عندما استرخت قبضته حولها قال لها ساخراً وقد استعاد سيطرته على أعصابه:

- قولي لي الآن، أما زلت لا تطيقين لمستي؟

اندفعت دموع الألم والغضب إلى عينيها فحرقتهما كما يحرق الملح الجرح. فردت مرتجفة:

- لقد فعلت ما أمرتني به... ألن تتركني الآن؟

رفع كتفيه الحاد، كان يسخر من تمسكها الفارغ بكرامتها وتركها تماماً، ومع ذلك لم يمح ابتعادهما الذكرى، ولا أطفأ النار التي حرقتها... فسارت ببطء نحو الباب الموصل للردهة... لتقف هناك، وتقول دون أن تلتفت:

- أكرهك مارك! أم أن الكراهية إحساس آخر لا تعرفه؟

رده الوحيد، كان ضحكة ساخرة، ثم تابع:

- سأحضر للعشاء الليلة يا زوجتي المحبة. لذا أرجوك لا تطبخي لي الفطر السام ولا تضعي لي الزرنيخ في الطعام... وإلا سأضطر إلى جعلك تأكلينه لنموت معاً.

ـ لكنني كنت أخطط لقضاء طوال بعد الظهر في التفتيش عن الفطر القاتل!

خرجت بسرعة إلى الردهة، وهي تعلم أن سخريتها ذهبت في الهواء... لكنها كانت بحاجة لأن تقولها.

رمت نيكول نفسها في الأسبوع التالي في نشاط محموم تخترع التنظيف في أماكن لا تحتاج إليه... تبالغ في إتعاب نفسها في تحضير وجبات الطعام... تشارك في نزهات غلينا ودايفد... تعمل حتى ساعات الليل المتأخرة لتتجنب الدخول إلى غرفة النوم... لكنها عندما كانت تندس في الفراش لم تكن تعلم ما إذا كان نائماً أم لا وهو لم ينطق طوال هذا الوقت بكلمة، بل كان ينظر إلى تكريس نفسها للبيت والأطفال بسخرية وتسلية.

نقصان وزنها، أصبح أمراً واضحاً... ودوائر الارهاق السوداء كانت تبرز نفسها بسرعة.

عندما كانت تنظر إلى وجهها في مرآة غرفة الطعام، أخذت تقرص خديها في طريقة قديمة الطراز لتعيد بعض اللون إليهما، وذلك قبل دخول غرفة الجلوس لتعلم مارك ودوغلاس أن العشاء جاهز. وكما أصبحت عادتها مؤخراً، وجهت كلامها إلى دوغلاس:

ـ غلينا ودايفد جلسا إلى الطاولة... لذا بإمكانكما الانضمام إليهما ساعة تشاءان.

ـ ما رأيك لو تمنحينا لحظات لانهاء كوب الليموناضة البارد هذا... كنت أحلم به طوال اليوم... إنه يوم شديد

الحرارة... وأكره التفكير في الغد.

فقال مارك بكسل:

ـ لماذا لا تطلب من نيكول أن تحضر لنا إبريق عصير بارد إلى الحظيرة، بعد ظهر الغد دوغلاس؟

نظر إليه دوغلاس طويلاً قبل أن يفرغ كوبه ويرد:

ـ لدى نيكول أعمال كثيرة، دون أن تحمل إلينا العصير إلى الحظائر!

ارتفع خط فمه المستقيم إلى الأعلى في ابتسامة خالية من الإحساس:

ـ أوه... ولكنها لن تمانع... فزوجتي تتمتع بملء ساعات نهاراتها بأعمال مختلفة لا تنتهي.

ارتفع الدم إلى وجه نيكول بعد أن حققت سخرية مارك هدفها. لكنها ابتسمت والتفتت إلى دوغلاس:

ـ بالطبع... سأحمل لكم العصير في الغد... ما من إزعاج... والآن أعذرني يجب أن أصب الحساء.

ـ سنلحق بك فوراً.

لم يعد أحد إلى ذكر الطريقة التي تعمل فيها نيكول... فخلال العشاء تولى دوغلاس معظم الحديث، كعادته، مركزاً على الولدين ونشاطاتهما. وبعد الانتهاء لم يبق دوغلاس إلا لتناول القهوة، ثم ذهب. ولم تدر نيكول أين اختفى مارك بعد أن نظفت الطاولة.

ثم أمضت القسم الأكبر من هذه الأمسية كما كانت تفعل خلال الأسبوع مع الولدين، وفي الحادية عشرة، كانت في

المطبخ تنظف المصباح المتدلي من السقف...

بينما كانت تقف فوق الطاولة، مسحت العرق عن جبينها بظاهر يدها. فمكنتها هذه الحركة من مشاهدة شخص يقف بالباب. فالتفتت بحدة حتى كادت تدلق الوعاء المليء بالماء والصابون عند قدميها. فانسكب القليل منه... عندها تعرفت على مارك المتكىء إلى قائمة الباب فعادت بسرعة إلى عملها، تسأله بحدة:

ـ أتريد شيئاً؟

ـ كنت أفكر في أن أدلك على طريق الوصول إلى الحظائر غداً.

فضحكت ساخرة:

ـ ستريني الطريق الليلة؟ الظلام شديد في الخارج!

ـ كنت أعني بواسطة الخريطة.

مدت نيكول يدها فمسحت السلسلة التي يتعلق فيها المصباح من السقف متمنية أن يخفي هذا حرجها من جهلها. قالت وهي تحاول العودة إلى هدوئها.

ـ سأنتهي بعد قليل.

ـ ما من عجلة.

كانت تريد التريث قدر استطاعتها، لكن بسبب نظرته المراقبة سارعت إلى إنهاء ما تفعل لكن حركتها السريعة في مد يدها إلى الأعلى وصولاً إلى نهاية السلسلة، سببت لها موجة مفاجئة من الاختناق، فقاومت الموجة الأولى، لكن الثانية جعلتها تصاب بالدوار، وفي اللحظة التالية، أطبقت يدان على

خصرها لتحملاها إلى الأرض.

فاحتجت بضعف:

ـ أنا بخير.

تركها مارك تستند إلى الطاولة، وسخر بصوت أجش:

ـ بالطبع أنت بخير.

ـ لكنني بخير... السبب هو الحرارة.

ظهر خيط رفيع من نفاذ الصبر في صوته وهو يقول لها:

ـ لست أهتم! باستطاعتك إجهاد نفسك حتى الموت المبكر، أو الانهيار من الارهاق... ففي كلا الحالين لست أنا من يعاني النتائج، بل أنت. بإمكانك البقاء هنا والعمل ثلاث ساعات أخرى، لكنني أود النوم، لذا، إذا كنت لا تمانعين سأريك الخريطة الآن.

إذا اعتقدت أنها ستكسب شفقته، فقد أعلمها بشكل قاطع جاف مدى خطئها... إن قلة اكتراثه بها كامرأة، ككائن بشري، كانت واضحة. فأحست فجأة بالهزيمة.

لحقت به بصمت وهو يخرج من المطبخ إلى مكتبته الصغيرة التي لم تكن تدخلها سوى للتنظيف... فوجدت صعوبة في التركيز على رأس القلم الذي يسير به فوق خريطة المزرعة الكبيرة فأملت ألا تخطىء طريقها في الصباح.

أخيراً سألها:

ـ هل ستتمكنين من إيجاد الطريق؟

فأجابت بغباء:

ـ أجل!

قررت أن تعود إلى المكتبة بعد ذهاب مارك لتنظر إلى الخريطة مرة أخرى... لكنها سمعته يتنهد بازدراء ويقول:

ـ لا بأس... إنك تعبة إلى درجة تجعلك لا تعرفين حتى اسمك... سأدلك ثانية في الصباح.

عند هذا أطفأ مصباح المكتبة، ثم ألقى عليها تحية مساء مقتضبة، وخرج. فحارت وتألمت من عدم اكتراثه، فهو لم يتظاهر حتى بالاهتمام... أخذت تحدق فيه وهو يبتعد.

إنه على حق... هي الوحيدة التي تعاني... وعليها التفكير في دايفد... ماذا تحاول أن تثبت له؟ أتثبت له أنه بمعاملته لها كجارية، ستعمل كجارية من طلوع الشمس حتى مغربها؟

كان مارك في الغرفة عندما دخلتها، فنظر إليها دون اهتمام وأدار لها ظهره، فتابعت سيرها إلى الحمام، فاستحمت وغيرت ملابسها ثم اندست في الفراش قربه لكنه لم يتحرك فافلتت دمعة من بين جفونها دون سبب... ثم غطت في نوم متعب قلق.

كان المنزل يخلو من كل العيوب بسبب جهدها خلال الأسبوع، لذا لم تحاول نيكول في اليوم التالي أن تبحث عن عمل. بل قررت فقط الذهاب إلى الحظيرة وكان قد نفذ وعده في الصباح فدلها على الطريق.

كان دايفد في المنزل ذلك الصباح، فأمضت معظم وقتها معه في الخارج قبل أن تبلغ الشمس كبد السماء. كان كالعادة قانعاً باللعب وحده، فجلست على كرسي طويل تراقبه.

لم تكن وجبة الغذاء بجودة ما اعتادت تقديمها لأنها أعدت

وجبة بسيطة وكافية. فلقد تعلمت درسها منه. ولن تبرهن شيئاً بعد الآن لمارك هاموند.

ملأت صندوق الثلج بزجاجات العصير التي بردتها مسبقاً في البراد... ثم لفت بعضاً من مكعبات الثلج لتبقى كما هي داخل الصندوق... وكافحت بكل جهدها لتضعه في مقعد السيارة الخلفي.

كان الوقت ظهراً حيث الحرارة شديدة... والسرعة بالسيارة ستثير غيمة من الغبار في مختلف انحاء المزرعة، لذا قنعت بالسير الخفيف.

بدت لها الزهور البرية على الطريق، تتوج خضرة عشب الربيع، وتخفف بالتالي خضرة أشجار السنديان والصنوبر الأرزي. ورأت من بين تلك الزهور شقائق النعمان وزهرة قلنسوة الراهب الزرقاء وناعورة الهندي، وكوب اللبن الأبيض والأخضر. وكان الهواء مشبعاً بالعطر الذي ترسله هذه الأزهار.

كانت الفراشات والحشرات الأخرى تنتقل من زهرة إلى أخرى، تشارك النحل في امتصاصها، بينما كانت العصافير تناجي بعضها بعضاً بالأغاني المشجعة. وفي وسط الحقول هناك رباط فضي يستدير وكأنه يحاول ربط خرافها ببعضها بعضاً. إنها الساقية التي يجب أن تستدير عندها نيكول باتجاه الحظائر.

سمعت الساقية تتهامس فوق الصخور وعلى الأطراف. ثم مات صوت المياه وملأ الجو مكانه صخب الماشية الذي ازداد إلى أن وصل إلى قمة ضجيجه عندما أخذت نيكول تخفف

سرعة السيارة للتوقف قرب ضباب الغبار الذي يلف الحظائر... بينما كانت تنزل من السيارة، أطبقت على أنفاسها حرارة ممتزجة من حرارة أجساد الرجال والماشية والشمس. رائحة العرق النفاذة، وحريق الوبر، وروث الحيوانات، ورائحة بعض الأدوية ملأت أنفها فسببت لها شعوراً بالغثيان.

كان كل شيء على قدم وساق فالنشاط والحركة في كل مكان. والوشم بالصباغ والوشم بالنار، وثقب الآذان في حركة دؤوب أما الرجال فعلى الأرض. منهم من يلوح بالحبل ويرميه أرضاً ومنهم من يربط الأرجل أو من يسرع إلى الركوب، وهذه أمور غالباً ما شاهدتها في أفلام الغرب الأميركي... ورغم انزعاجها من الروائح الكريهة راحت تتأمل ما يجري بذهول.

غطت عينيها من وهج الشمس وراحت تتفرس في البشر الموجودين ضمن الحظيرة أمامها... قليل من الرجال لاحظوها واقفة إلى جانب الطريق. لكن سرعان ما نساها من شاهدها في غمرة عملهم الذي لا ينتهي... كانوا جميعهم يرتدون الثياب نفسها تقريباً، وهي عبارة عن الجينز الأزرق القاتم، والقمصان الباهتة والقبعات المغطاة بالغبار الذي يغطي كل شيء تقريباً.

ومع هذا لم تجد نيكول صعوبة في التقاط مارك من بين الآخرين. فرغم اتساخه كالآخرين، كان حوله عباءة خفية تميزه عن الجميع... كان يجلس بكل ارتياح على صهوة حصان بني قوي... يحيط به بكل ما يجري حوله.

تركز اهتمامها عليه... فلم تلاحظ الحصان والراكب المميز الآخر الذي اقترب منها إلى أن حجب رأس جواده

الغزالي اللون الرؤية عنها، فالتقت عيناها المذعورتان بعيني دوغلاس المداعبتين قبل أن يدير اهتمامه إلى الحظيرة. ثم سألها:

ـ ما رأيك بحياة راعي البقر المليئة بالحركة؟ حرارة وقذارة، ضجة وبقر... إلى من تعتقدين أن بإمكاننا الشكوى لأجل ظروف عمل أفضل؟

فابتسمت ورفعت رأسها إلى السماء:

ـ إلى رب السماء.

ثم حدقت النظر في الرجل العريض المنكبين الجالس فوق سرج الجواد. ثم أشاحت بعينيها عنه عندما لم تعد تستطيع منع الشمس عنهما. فقال لها دوغلاس بلهجة قلق حقيقية.

ـ كان يجب أن تضعي قبعة قبل خروجك إلى الشمس.

فكرت نيكول بقبعة القش المزينة بالزهور. إنها رائعة في الحديقة وقرب بركة السباحة، لكنها سخيفة هنا، فردت:

ـ هذا ما اكتشفته لتوي... لم أكن أعلم أن العمل كثير في جمع الماشية.

فابتسم لها دوغلاس.

ـ الأمر أكثر من جمعها ووسم الجديد منها، إذ يجب أن تمر عبر قناة تغطس فيها في الأدوية المانعة للأمراض. والمريض منها أو العاجز يجب عرضه على الطبيب البيطري. فالعجول الجديدة يجب وسمها ووضع حلقة مميزة في آذانها، كي تباع فيما بعد للذبح... ليس في هذا كله مرح أو رومانسية.

سعلت نيكول فجأة وقد وصل الغبار من مكان ما إليها، سببته بقرة تحاول التملص من حبل الراعي الذي التف على رقبتها. فقالت بصوت لا يزال مختنقاً:

ـ أوافقك الرأي... العصير في السيارة. هل تريدني أن أحضره؟

نظر دوغلاس نظرة سريعة إلى الحظيرة فرأى مارك يستدير بحصانه حول القطيع بطريقة قربته من السياج حيث يقفان فسأله دوغلاس:

ـ ما رأيك مارك؟ انستريح الآن أم نكمل؟

لم يرد مارك بعجلة، ففهمت نيكول أن قراره اتخذه قبل أن يتقدم نحوهما.

ـ سننهي ما تبقى ثم ندخل القطيع التالي... بإمكانه أن يهدأ قليلاً بينما يستريح الرجال.

لم يكن ينظر إليها وهو يرد... ولم تستطع توقيف ارتجاف فكها وهي تسأل:

ـ كم سيطول هذا؟

مرر نظرة سريعة إلى وجهها قبل أن يصرف نظره عنها وعن الاهتمام بها.

ـ بعد نصف ساعة.

ـ هل من المفترض أن انتظر؟

شاب صوتها التوتر في وقت تحاول فيه إخفاء كرهها الناتج عن تصرف مارك غير المكترث بها... ثم أكملت:

ـ يجب أن أحضر الروستو للعشاء، غلينا ودايفد سيصلان

المنزل بعد وقت قصير!

سمرتها في مكانها حدة نظرته الفولاذية، وقسمات وجهه المتحفظة الصخرية.

ـ لك أن تبقي أو تذهبي، هذا خيارك. لكن لا تتذمري من كثرة العمل. إذا رغبت في كتف تبكين فوقه، فأنا واثق أن دوغلاس سيكون أكثر من سعيد لتوفيره لك.

التفت بسخرية إلى الرجل الطويل فوق حصانه... فاسودت وجنتاه بالغضب، وارتسمت ابتسامة قاسية على فم مارك.

ـ لماذا لا ترافقها إلى المنزل لتحضر غطاء صندوق الثلج؟ سيعجبك هذا... أليس كذلك؟

ثم أمسك لجام جواده والازدراء يغطي وجهه فأشاحت نيكول وجهها عن دوغلاس متألمة فقد علمت أنه معجب بها، لكن مارك يحاول التلميح إلى أنه أكثر من معجب، لكن ما زاد ألمها وذلها عدم إظهاره أقل اهتمام بذلك.

تمتم دوغلاس بشراسة:

ـ ذلك الرجل اللعين دقيق الملاحظة. يلاحظ أشياء ليست من شأنه.

أخذت نيكول تتفرس بدوغلاس، مع أنه لم ينظر إليها وهو ينزل عن ظهر جواده ملوحاً لأحد العمال ليأخذ الحصان.

كان الازدراء الغاضب في كل حركة من حركاته، قفز عن السياج وسار مع نيكول التي كانت تجرجر أذيال الخيبة المثيرة للشفقة... ثم بصمت مكتئب، أخرج صندوق الثلج من

السيارة... وحمله إلى تحت ظل شجرة سنديان. وعاد إلى السيارة ليصعد ويشير إليها بأن تنطلق.

عندما عادا إلى الطريق الموصلة إلى المنزل، نظرت نيكول مترددة إلى الرجل الوسيم قربها فرأت ذراعه تستريح فوق النافذة المفتوحة، وقبضة يده على وجهه.

- دوغلاس، أنا آسفة... ما كان يجب عليه قول ما قاله.

- ولماذا لا...؟ الأمر صحيح. كان يجب أن أقدم استقالتي منذ الأسبوع الأول الذي جئت به إلى هنا، بعد أن لاحظت حقيقة مشاعري نحوك.

لم يكن هناك ما يمكن أن تقوله نيكول... فلن تستطيع تشجيعه أبداً. خاصة أن مشاعرها نحوه لا تعدو حدّ الصداقة والإعجاب. مع ذلك، فالتفكير في الحرمان من محبته ومواجهة كل تلك الوجبات وحدها مع مارك وقلة اكتراثه، أثارت قشعريرة باردة في أعصابها.

بقيا صامتين ما تبقى من وقت أثناء الطريق فأدركت نيكول أن دوغلاس لا يريدها أن تتكلم. فلو قالت له إنها متعلقة فقط به فسيكون قولها قاسياً كإعطائه أملاً زائفاً. في الوقت نفسه هناك إحساس مؤكد أنه سيكون موجوداً إلى جانبها عندما تحتاج إليه، دون سؤال ودون شروط.

استمر تفكيرها يتساءل عما إذا كانت الأمور ستختلف لو أنها قابلت مارك ودوغلاس معاً في الاحتفال... لكان الرد يومها سيكون سهلاً... لكن سؤالاً آخر لاح لها في المقدمة:

لماذا اختارت مارك بدلاً من دوغلاس؟ الرد على هذا السؤال سوف يراوغها كثيراً بعد.

● ● ●

www.elromancia.com

٧ ـ لا وجود لها

تأخرت دروس دايڤد في الركوب إلى ما بعد انتهاء تجميع الماشية. وقررت نيكول أن تنتظر ذلك الوقت كذلك، لتنعش مهارتها في الركوب. صباح اليوم الموعود، استيقظ دايڤد عندما كانت سماء الشرق ما تزال صفراء... ولزم نيكول أن تستخدم كل ابداعها وصبرها كي تبقيه مشغولاً في المنزل إلى أن تحين الساعة المحددة للقاء مارك في الاسطبل.

أقنع دايڤد غلينا بالمجيء لمراقبته... وها هي الآن تقفز وراء نيكول ببطء لتماشي سير نيكول البطيء. عندما وصلوا، سارع دايڤد للدخول متجهاً إلى الجياد المربوطة خارج حظائرها. وسأل مارك بإثارة:

ـ أيهما لي؟

ـ الكستنائي إلى اليسار.

ـ ما اسمه؟

ـ جو.

ـ جو! اسم غير جيد سأسميه «البرق».

تأملت نيكول الجوادين بصمت، فالكستنائي الذي أشار إليه مارك كان يشبه الأحمر القريب منه، كانت تظن أن مطيّة دايڤد

ستكون من النوع «البوني» الصغير، فظهرت تقطيبة قلق على جبينها وهي تنظر إلى مارك.

ـ دايڤد صغير جداً على ركوب حصان كبير كهذا.

ـ «البوني» الصغير قد يكون له قوة الحصان الكبير نفسها. وليس عندنا جواد أفضل من جو، بإمكانك تفجير أصبع ديناميت أمامه دون أن يتحرك.

فقال دايڤد:

ـ اسمه البرق... هل استطيع ركوبه الآن؟

قال له مارك بلهجة الآمر:

ـ استدر من الناحية الأخرى وفك رباطه ثم آتني به إلى هنا... وتأكد أن تسير إلى جانبه كي يراك.

انطلق دايڤد بسرعة لينفذ ما قاله له، لكن نيكول تحركت محاولة اللحاق به لإرشاده... فأطبقت يد مارك الفولاذية على يدها:

ـ اتركيه... لا يمكنك فعل كل شيء عوضاً عنه.

ـ لكنه صغير.

أشاحت وجهها عن بريق عينيه الخضراوين، واحمرار شعره الذهبي... وتمنت لو كان دوغلاس هنا ليطمئنها بدلاً من مارك، الذي أجابها ساخراً:

ـ إذا كنت ستصابين بالهستيريا... فعودي إلى المنزل.

فقررت نيكول أن لا تتفوه بكلمة أخرى لئلا تعاني من سخرية مارك. فراحت تنظر بصمت إلى مارك وهو يحمل دايڤد إلى السرج الصغير على ظهر الحصان العريض. كانت كل أوامر

www.elromancia.com

مارك التي أطلقها في الدرس الأول بلهجة صارمة لا تقبل المزاح. وقد حاولت نيكول أكثر من مرة تبسيط بعض أوامره لدايفد، لكنها كانت تلوذ بالصمت، بعد أن تكتشف أن دايفد فهم قوله تماماً. وما أن انتهى الدرس، الذي اعتبره دايفد قصيراً، حتى أشار مارك إلى نيكول لتمتطي حصانها.

بعد أن دارت بالحصان الأحمر عدة مرات بدأت تتذكر معظم براعتها التي نسيتها. لكن أمام عيني مارك الناقدتين الهازئتين، أحست بأنها أقل خبرة، خاصة وأنه لم ينظر إليها باستحسان إلا مرة واحدة.

غلينا التي كانت صامتة بشكل مؤلم طوال وقت جلوسها فوق الحاجز، تراقب دايفد ثم نيكول، أطلقت أخيراً تعليقاً:

ـ يجب أن تبقي نيكول كعبيها إلى الأسفل أبي.

لاحظت نيكول النظرة السريعة التي أطلقها مارك إلى ابنته، ثم طلب من نيكول أن تنفذ ملاحظتها... فخطرت لنيكول فكرتان متوازيتان: إحداهما أن غلينا لا تكره الركوب كما قالت والثانية أن مارك لم يكن غير مكترث بابنته كما يبدو.

بعد انتهاء الدروس، واطلاق الجياد إلى المرعى... عاد الأربعة إلى المنزل... بينما كان دايفد يتحدث إلى غلينا عما أحس به فوق السرج، التفتت نيكول تشكر مارك على الدروس، التي تعلم أنها أولى دروس عديدة... لكنها بطريقة ما لمحت إليه بانطباع خاطىء فتلقت نظرة ساخرة:

ـ أتحاولين القول إنك مقدرة لي جهدي لكنك تفضلين محبة دوغلاس؟

فاتسعت عيناها باحتجاج سريع:

ـ لا...! كل ما أقوله إنني أقدّر لك محافظتك على وعدك بتعليم دايفد الركوب.

ـ هل كنت تعتقدين أنني لن أفعل؟

ـ لا... بل اعتقدت أنك ستفعل...

فقاطعها بابتسامة لا حرج فيها:

ـ لكنك ظننتني سأكلف شخصاً آخر بهذا؟

ـ إذا كنت تحاول أن تقول إنني كنت أتوقع قضاء بعض الوقت مع دوغلاس... فأنت مخطىء كل الخطأ.

كان صوتها يرتجف غضباً، فأجابها ببرود:

ـ لم أقل هذا... بل أنت من تقولينه!

ـ لكنك كنت تفكر فيه.

ثم أوقفها مارك بحركة سريعة ممسكاً خصرها ومديراً جسدها إليه، ثم أمسك وجهها بقبضته الثابتة... فتسارعت نبضات قلبها وهي تنظر إلى عينيه الزرقاوين اللتين ركزتا اهتمامهما على شفتيها. وسألها بنعومة:

ـ أتعلمين بماذا أفكر الآن؟

أحست بساقيها فجأة تتحولان إلى مطاط. فلامست يداها خصره لتدعم نفسها في الوقوف، فكان أن انتقل إلى جسدها تيار عنيف من اهتزازات كادت ترميها أرضاً. فهمست لدى شعورها بهبوط رأسه عليها ببطء:

ـ الولدان.

لكن يده كانت قد رحلت عن ذراعها إلى بشرة كتفها

الناعمة فإذا بالاذعان يطغى على إرادتها. وهي تحس بأنفاسه الحارة، التي نتجت عن ضحكته الصامتة للحظة واحدة قبل أن تصبح بين ذراعيه فارتجفت رجفة واحدة قبل أن تذوب تحت ضغطهما.

قبل أن يبدأ العناق الفعلي بلمحة صبر، ابتعد عنها... فتمايلت نحوه، بينما هبطت يده على كتفها إلى ظهرها ليوقفها هناك. فتصاعدت منها آهة الخيبة من حركته هذه... ألن يتوقف جسدها عن خيانة كبريائها أبداً؟... كم تكرهه!... رفعت نظرها ببطء إليه فوجدته لا ينظر إليها. ثم سأل بهدوء:

- ما الأمر دايڤد؟

التفتت بسرعة مذعورة إلى الصبي الواقف أمامهما وكانت يد مارك ما تزال تمسك بها... فطالعتها تقطيبة تفكير كانت مرتسمة على جبهة دايڤد وهو يحدق في مارك، ثم يسأله وقد كشر عن وجهه بازدراء:

- أتحب العناق إلى هذه الدرجة؟

فأجابه مارك بلهجة مرحة:

- إنه كالسبانخ... ستحبه عندما تكبر.

فهز دايڤد رأسه وكأنما لم يعد للموضوع أهمية:

- اوه... تعالي ناني... قلت إنك ستقدمين لنا بعض البسكويت والحليب.

فتمتمت نيكول تتسلل متحررة من يدي مارك:

- أنا قادمة.

لحقت بدايڤد مطأطئة العينين تحس بخطوات مارك الرشيقة

وراءها.

استمرت دروس الركوب أسبوعاً آخر، كانت تبدأ عادة في ساعات البرودة في الصباح تحت إشراف مارك... كان حصان دايڤد الكستنائي القوي المطيع، كالبرق، لكنه كان مطيعاً حذراً، فعندما كان يشعر بخطأ ما يرتكبه دايڤد كان يخفف سرعته حتى يستعيد الصبي توازنه.

أما جهودها هي، فكانت أكثر نجاحاً. ووجدت نفسها، تحت إرشادات مارك، تتعلم المزيد عن الجياد وركوبها. فظهر تألق الرضى على ما تنجزه، في وجهها، دون أن تتلقى انتقاداً واحداً من مارك.

قال لها مارك وهي تترجل:

- سنخرج بعد الغذاء لنرى ما تعلمناه في الحقول المفتوحة.

نظرت إليه نظرة سرور مكبوتة، تود أن تعبر عن فرحها لكنها علمت أنه سيقابل هذا التعبير بسخرية، فاكتفت بأن هزت رأسها موافقة بصمت، ثم ابتعدت لتربح جوادها الأحمر، مبقية إحساس الانتصار مدفوناً في نفسها.

بعد تنظيف أطباق الغذاء، ووضع دايڤد في باص المدرسة لتلقي دروس بعد الظهر. توقفت نيكول في طريقها إلى الحظيرة تحت شجرة السنديان تتأمل المراعي الواسعة الممتدة أمامها، فتصورت نفسها تجري بحصانها الأحمر عبر الحقول والهواء يتلاعب بشعرها... إنها صورة رائعة ستتحقق عما قريب.

حثت الخطى في الممر بين الأشجار، تقطع ما تبقى من

الطريق الذي تملأه أشعة الشمس الساطعة نحو الحظيرة. فجأة توقفت في منتصف الطريق مذهولة، وقد جف الدم من وجهها... لأنها شاهدت حصانها الأحمر خارج السياج وحصان مارك الكستنائي قربه.

لكن، ما كانت نيكول تحدق فيه بذهول، كان الحصان الأرقط الرافع عنقه على بعد أقدام من مارك... عندها اختفت سعادتها بسرعة البرق. إذ كانت فوق الحصان المرقط، جانيت تجلس منفرجة الساقين، تبدو خبيرة، أنيقة بالتنورة البنية الخاصة بالركوب وبالقميص الأبيض وبالقبعة العريضة التي لها الألوان نفسها والتي تخفي خصلات شعرها الطويل المربوط خلف عنقها. كان يبدو في عيني جانيت الرضى وهي تتأمل نظرة الخيبة على وجه نيكول.

- نحن هنا نيكول... أنا ومارك في انتظارك.

أجفلتها طريقة جمع تلك الفتاة بين اسمها واسم مارك، فارتفع ذقنها بكبرياء، مجبرة قدميها على حملها نحوهما، لتردّ ببرود:

- لم أكن أعلم أنك هنا آنسة والترز، وإلا لجئت مبكرة.

تلك الملاحظة أطلقت ضحكة مرنمة من حمراء الشعر زادت نيكول غضباً. فنظرت إلى عيني مارك المراقبتين بكسل. فذكرها اللمعان الساخر في تلك العينين الخضراوين بما حدث لها معه بعد زيارة جانيت إلى المنزل. ثم اضطرت للقبول بمجيء جانيت متى شاءت لتتخلص من ازعاجه لها... فاحمرت بغضب صامت... وسمعت جانيت تقول:

- أبي كان يراقب بعض القطعان في مكان ليس ببعيد من هنا. فقررت أن أخرج معه لأزوركم. وعندما قال لي مارك إنك ستخرجين للمرة الأولى للركوب في الحقول دعوت نفسي للمجيء معكما. لعلك لا تمانعين!

فردت نيكول متصلبة:

- طبعاً لا.

فأضافت جانيت بلهجة متعالية:

- أعرف شعور المتعلم الجديد... فأنا ومارك ولدنا تقريباً على صهوة جواد.

سرت البرودة في أطراف أعصاب نيكول... فقدراتها على الركوب لا تماثل قدراتهما... لذا أحست بثقتها تتبخر... وبمعدتها تتقلص كأنها على وشك التقيؤ، وشعرت بأنها نسيت كل ما علّمها إياه. أرادت أن تهرب قبل أن تذل أمام براعتهما وخبرتهما وتصبح عرضة للسخرية.

فك مارك رباط جواديهما، متقدماً نحو نيكول ليعطيها زمام الأحمر. فمرت بها نظرته الجامدة بسخرية ثم وقف أمامها ليحجب منظر يديها المرتجفتين عن جانيت، لكنه لاحظ هذا الارتجاف. فقال بهدوء:

- لقد نسيت قبعتك.

فردت بغباء:

- قبعتي؟ أنا لا أرتدي قبعة.

- ما كنت بحاجة إليها أما الآن فلا بد من وضعها تحت شمس المراعي الحارقة.

أمسكت بالزمام بيد ثابتة وهي تتصور نفسها ترتدي تلك القبعة السخيفة ذات الزهور... فأشاحت بوجهها:

ـ لست بحاجة إليها.

وضعت يدها على مقدمة السرج استعداداً للركوب. لكن أصابع مارك حفرت في ذراعها من فوق قميصها.

ـ قلت لك اذهبي إلى المنزل واحضري قبعتك.

قفزت شرارات ذهبية مسمومة من عينيها اللوزيتين وهي تجابه نظرته، ثم انتقلت نظرتها إلى جانيت، التي كانت تراقب بصمت معركة الإرادة بينهما... دون أية كلمة انتزعت نيكول ذراعها من قبضته بغضب، ورمت اللجام إليه، ثم عادت أدراجها إلى المنزل، والغضب والسخط باديان في كل حركة منها.

كم سينتظران عودتها يا ترى؟ إنها لن تشاركهما الركوب خاصة وهي ترتدي تلك القبعة السخيفة على رأسها. صفقت الباب الأمامي خلفها بغضب جارف. ولم تخفف سرعة خطواتها حتى وصلت المطبخ، فوقفت قرب الطاولة، تحس بحاجتها إلى أن تنفس عن غضبها.

ثم أخرجت دلواً وفرشاة من خزانة المغسلة، ووضعت الدلو تحت صنبور الماء، ثم وضعت كمية كبيرة من مسحوق التنظيف فوقه وتركته يمتلىء بالماء الساخن... بعد لحظات كانت تجثو على يديها وركبتيها فوق الأرض تنظفها بوحشية بحركات عنيفة... كانت قد أنهت نصف أرضية المطبخ عندما سمعت الباب الأمامي ينفتح، وصوت مارك الآمر يستدعيها،

فتجهم وجهها، لكنها لم ترد.

كما أنها لم ترفع رأسها عندما توقفت خطواته بباب المطبخ، ليقول لها بهدوء ينذر بالشر:

ـ أما طلبت منك أن تحضري قبعتك؟

غطّت الفرشاة بالماء والصابون وهي ترد باختصار:

ـ أنا مشغولة.

ـ بل أنت خارجة معنا لركوب الخيل.

كان كل كلمة تفوه بها يركز عليها بقسوة... فأجابته ساخرة:

ـ ستجد النزهة، أنت وجانيت، أكثر ارضاء لكما وحدكما. أنا واثقة من هذا.

وقفت على قدميها تضع دلو الماء على الطاولة، ثم تهم بزحزحة الكراسي من مكانها، وهي تحس بالنظرة الفولاذية التي كانت تلاحق تحركها. فقال مارك:

ـ هل ستعودين إلى هذا مرة أخرى؟

عندما لم ترد سألها:

ـ هل ستأتين بقبعتك أم آتيك بها؟

فهزت كتفيها بعدم اكتراث.

ـ اذهب وآت بها إذا أردت... لكنني لن أخرج.

ـ بسبب وجود جانيت؟

ضربت قدمها في الأرض بثورة غضب، ثم نظرت إليه تواجهه وهي ترتجف.

ـ لن أدع تلك المرأة تهزأ بي! ولست أهتم بما قد تفعله

بي... لكنني لن أرتدي تلك القبعة السخيفة!

أمال رأسه إلى جانبه متسائلاً:

ـ سخيفة؟

ـ أجل سخيفة! أنت تعرف أن القبعة الوحيدة التي أملكها هي قبعة القش ذات الزهور!

دوى ضحكه عالياً فقالت له بصوت يرتجف:

ـ الأمر ليس مضحكاً!

لكن ضحكته استمرت... وقبل أن تتيح لتفكيرها فرصة النظر بما ستفعله، كانت قد رفعت دلو الماء والصابون فأفرغته باتجاهه... وكانت بضع نقاط فقط من نصيبه لأنه قفز جانباً، متجنباً الماء بكل سهولة، فخيم الصمت على المطبخ... ثم ركز نظره عليها بعينين ضيقتين.

رغم شدة غضبها، ارتدت إلى الخلف وهي تراه يتحرك إلى الأمام لكنها أجبرت نفسها على الوقوف في مكانها جامدة، تحارب الاندفاع الجبان الذي يحثها على الهرب. وقد نجحت في هذا إلى أن أصبح أمامها مباشرة. عندها لم تعد تقوى على الوقوف فحاولت الهرب.

لكن يديه أمسكتا كتفيها بقبضته عقاباً لها وجذبها إلى صدره فالتصق ظهرها به. وأحست بارتجافات باردة برودة الفضة تتسارع نحو نخاعها الشوكي عندما أخذت يداه تمران بنعومة على ذراعيها... فأشعلت لمساته المداعبة المثيرة فيها شموع الرغبة كالعادة.

قالت له مرتجفة... والتوتر يكاد يخنقها:

ـ أنت أجبرتني مارك. ما كان عليك الضحك مني.

تحت تأثير لمساته، لم يعد لديها الإرادة لتقاوم فلما أدارها بين ذراعيه، ورفعها يحملها بينهما. قال متمتماً بخبث:

ـ النار يجب مكافحتها بالنار.

دون قصد منها، التفت يداها حول عنقه تدعم نفسها... في حين غطت قبلاته النارية وجهها، لم يعد ما قاله منذ لحظات مبهماً لها كما بدا، خاصة بعدما أحست بالخطوات السريعة التي كان يخطوها. وبعد أن شعرت شعوراً غريباً بالرضى يجتاحها وهي تتصور جانيت تدخل عليهما فجأة فتنصدم بالطريقة التي يداعبها فيها مارك.

بدا لها أنها تسمع أغنية حب شاعرية تملأ الجو، كأنها تغريد عصفور... فأغمضت عينيها أكثر لتتمتع بالصوت الطروب... فلمسات مارك كانت تغمرها بإحساس مبهج وكأنها تطير فوق الغيم... ودون إرادة منها أخذت تتأوه، تحرك عينيها بضعف، ولم تعد تستطيع رؤية شيء أمامها سوى فمه.

لكنها سمعته يقول بصوت منخفض ساخر:

ـ أذن، أردت أن تبللني؟

أحست بالصدمة من كلماته قبل أن يبعدها عن صدره... ثم يتركها تقع... فتحت فمها تصيح، لكن الماء أطبق حولها، فغرقت كل جهودها لتتخلص من ماء بركة السباحة.

توقفت كل مشاعرها التي أثارها عناقه بسرعة، وكافحت تضرب الماء بذراعيها وهي تصعد إلى السطح... سبحت نحو الحافة تسعل، ثم جذبت نفسها إلى الحافة تحس بأنها قطة

غارقة في الماء.

دفعت خصلات شعرها المبللة عن عينيها، ثم التفتت نحوه بغضب، فوجدت إن ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه بدل ذلك الوجه المتجهم المعتاد. فتسمرت مسحورة من مرأى هذه الابتسامة الحقيقية، فهي لم تشاهده يبتسم ابتسامة عميقة من قبل، وكان تأثير هذا عليها كبيراً.

ـ سأنقل اعتذارك إلى جانيت!

لم يعد مارك ثانية إلى المنزل طوال بعد الظهر. لكنه ظهر في المطبخ دون أن تتوقعه وهي تحضر وجبة المساء. رمى العلب التي يحملها بين ذراعيه على الطاولة... فالتفتت نيكول متوترة، تمسح يديها.

سمعته يقول وهو ينظر إليها:

ـ لم يعد أمامك عذر يحول دون خروجك لامتطاء الخيل.

غمرتها السعادة وهي ترى علبة من العلب فيها قبعة... لكنها تباطأت عمداً في فتحها وفي إخراج قبعة رعاة بقر عاجية اللون واسعة الاطار. أما العلب الأخرى فكانت تحتوي على بنطلون خاص بالركوب مع سترة مناسبة، رفعت نظرها عن الثياب ثم قدمت له شكرها الصادق... متسائلة بصمت إذا كانت هداياه دافعها التفكير فيها وفي مشاعرها أم نابعة من العادة. لكنه تكلم قبل أن تشكره:

ـ على فكرة... سيقيم لدينا ضيف في نهاية الأسبوع... ففكرت في أن من الأفضل إخبارك الآن حتى يكون لديك الوقت الكافي لتحضير غرفة الضيوف.

ـ ضيف؟

جمد الدم في عروقها، حتى كادت ضربات قلبها تتوقف... غضبها لن يسمح لها أبداً بتحمل وجود جانيت خلال نهاية أسبوع كاملة. وأجابها مارك:

ـ أجل... ضيف واحد... لماذا؟

ـ دون سبب... هل أنت مضطر لدعوتها... مارك؟

ـ دعوتها؟ لم أقل لك ان الضيف امرأة.

ـ اوه توقف عن التلاعب. أعلم أنك دعوت جانيت لتنتقم مني على ما حدث اليوم... إنها تلك النزعة الشريرة التي تدفعك إلى إذلالي، كي الزم حدودي.

ـ ومتى كنت قاسياً عليك؟

تحرك من حيث يقف بسرعة، حتى أنها حُشرت بين الكرسي والطاولة، صاداً عليها بذلك طريق الهرب لكنها أجابت بصوت حازم:

ـ ببرودتك، وعدم اكتراثك. وتحفظك، وبالطريقة التي تسخر بها مني. الطفل الصغير يحتاج إلى أكثر من الارضاع والدفء، فلديه مشاعر ويحتاج إلى اهتمام لئلا يموت والكبار ليسوا أفضل حالاً... مارك... ألا تهتم بأمر أحد حقاً؟ أليس هناك من تهمك سعادته؟

فالتوى فمه:

ـ هل تحاولين إنقاذ روحي بالمواعظ نيكول؟

ـ أعتقد أنني أحاول البحث عن روحك... هل تملك شيئاً تضحي به من أجل شخص آخر.

بدا عليه القلق وعدم الارتياح... ثم أجاب:

- لا.

جعلتها حدة رده القاطع تجفل. وحملته خطوات واسعة نحو الباب، حيث توقف لينظر إليها بترفع مقصود... قبل أن يردف:

- كما ليس لدي أية رغبة في معاقبتك أو إذلالك... فضيفنا هذا الأسبوع رجل اسمه فرانك ريتشارد...

ومع ذلك لم تجد نيكول الراحة في هذا.

يوم الجمعة بعد الظهر... سمعت نيكول هدير طائرة صغيرة فوق المنزل... ولم يكن مارك قد عاد إلى ذكر الضيف، ولا شرح لها ما إذا كان صديقاً أم رفيق عمل. نظرت نيكول من النافذة فشاهدت الطائرة الحمراء الصغيرة تهبط باتجاه المزرعة قبل أن تختفي وراء الأشجار... هل هذا هو فرانك ريتشارد؟

خشية أن يكون القادم هو الضيف، وضعت نيكول إبريق عصير في الثلاجة... بعد عشرين دقيقة سمعت الباب ينفتح يتبعه صوت مارك ورجل آخر. ملست تنورتها الصفراء المزهرة استعداداً لدخول غرفة الطعام ثم غرفة الجلوس.

توقفت في منتصف غرفة الجلوس تتأمل الزائر الغريب بانتظار أن يلاحظ الرجلان وجودها. كان الرجل أطول من مارك، شعره أسود كجناح الغراب، وعيناه بنيتان لدرجة الاسوداد. على وجهه ملامح العجرفة مرسومة رسماً، لكنها ليست بشراسة كما الحال مع مارك لأن الابتسامة كانت تخفف

من تجهمه. وسمعت الرجل يسأل بصوت عميق:

- أين روز؟ كنت أتوقع أن تقابلنا عند الباب.

في تلك اللحظة التفت الرجل إلى منتصف غرفة الجلوس، لكن نيكول كانت قد أعدت نفسها لنظرته الفضولية... فتوقعه رؤية عمة مارك أشار إلى أنه لا يعرف بوجود نيكول.

قالت نيكول، بارتجاف خفيف من الغضب، وابتسامة متوترة تعلو شفتيها لأنها اكتشفت أن مارك لم يذكرها:

- مرحباً!

سارع مارك ليسأل الرجل بهدوء:

- ألم أخبرك عندما أتصلت بي أن روز تقاعدت؟

فحول الضيف عينيه نحو مارك:

- لا... لم تقل لي.

- إذن فلا بد أنني نسيت ذكر زوجتي... هذه زوجتي نيكول... وهذا فرانك ريتشارد.

رافقت ابتسامة مكبوتة يد فرانك الممدودة إليها:

- أشعر أن علي الاعتذار لجهلي.

- لا... أرجوك. لقد تزوجنا بسرعة وهدوء.

فنظر إليها مارك.

- ما تقصده أننا التقينا في احتفالات «مديسن هات» ثم سارعنا إلى تسجيل عقد الزواج.

لم يترك تفسيره القاطع مجالاً للتفكير في أن عاطفة ما كانت بينهما قبل زواجهما السريع وهذا ما دفع نيكول إلى عدم التظاهر بأن زواجهما مبني على الحب. نظرت إلى الرجل

الواقف قرب مارك... ثم قالت:

ـ أترى سيد ريتشارد... لقد وجد فيَّ ما يريد... فأنا أجيد الطبخ وتدبير المنزل، وأحب الأولاد... هل تود شرب المرطبات؟

فرد مارك بخشونة:

ـ أجل... هذه فكرة جيدة.

انحنى رأس فرانك بإنحناءة خفيفة قبل أن تخرج نيكول مسرعة، فسيطرتها على أعصابها تكاد تفلت منها. عندما أصبحت في غرفة الطعام... تجمّدت في مكانها وهي تسمع سؤالاً فظاً يطلقه بصراحة فرانك:

ـ أي نوع من الزواج هذا يا مارك؟

ـ إنه زواج يناسبنا. على الأقل لا تتلاعب بي امرأة بين أصابعها كما تتلاعب بك.

ـ يوماً ما... ستضطر للركوع على ركبتيك... وستجد نفسك في موقف ليس فيه تواضع... بل إذلال.

تمنت نيكول بصمت أن تتحقق هذه الكلمات... كم تود رؤية مارك يزحف على ركبتيه طلباً لعاطفة امرأة.

أحضرت لهما الشراب المثلج، وكادت تعود إلى المطبخ لولا وصول غلينا ودايفد من المدرسة... بعد تحية حميمة خجولة قدمت غلينا دايفد للضيف. ثم سألته:

ـ ألم تحضر معك العمة ستايسي ولا جشوا؟

ـ ليس في هذه المرة.

والتفت إلى نيكول ليشرح لها.

ـ ستايسي زوجتي... عادة ترافقني هي وطفلنا الصغير كلما جئت لشراء الجياد... ومارك كان «إشبيني» وأنا أعلم أنها ستحزن لخسارتها فرصة مقابلتك.

ـ وأنا أود كذلك مقابلتها.

أحست نيكول بألم غريب في قلبها من طريقة لفظه اسم زوجته بحب وعاطفة، ومن اللمعان الخاص الذي بدا في عينيه عند ذكرها.

وسأله دايفد:

ـ كم عمر ابنك؟

ـ ثلاث سنوات تقريباً.

فقال دايفد بحزن:

ـ أنه أصغر من أن يركب الجياد.

فارتسمت بسمة مكبوتة على شفتي فرانك:

ـ قليلاً... مع أنه أحياناً يركب إلى جانبي أو جانب أمه.

ـ لقد تعلمت ركوب الخيل... تقريباً.

فتدخلت نيكول.

ـ هذا يكفي الآن. اذهب وغيّر ملابس المدرسة بأخرى ولا تنسى انتعال حذاء آخر.

فقالت غلينا باهتمام:

ـ سأتأكد من هذا بنفسي نيكول.

قال فرانك بعد ذهاب الولدين.

ـ لم تعد غلينا صامتة كما كانت.

فالتفت إليه مارك:

ـ إنها متعلقة بالصبي... تحبه كثيراً.

ـ هذا مفهوم... فلديها حب كبير مكتوم... ولم يكن هناك من تعطيه إياه.

ـ نحن نعرف بعضنا منذ زمن طويل فرانك.

في لهجته نوع من التحذير... فتبادل الرجلان نظرات مدروسة، أحست معها نيكول بتوتر مفاجيء، وكأنه صرير معدن يصطدم بمعدن آخر. إنه ذاك الصدى الذي يُسمع عندما تلتقي قوتان متوازيتان ثم سمعت صوت الباب يفتح فأحست بالراحة لدخول دوغلاس... كان في نظرته لها معنى مبطن... لكنه ألقى عليها تحية صامتة قبل أن يستدير نحو الرجلين الآخرين.

ـ لقد فحص كارل محرك الطائرة و «الكاربوتير» سيد ريتشارد. ولم يجد فيهما أي شيء خاطيء. لكنه يقترح استدعاء ميكانيكي طيران لتطمئن أكثر.

فقطبت نيكول:

ـ ثمة خطب في الطائرة؟

ـ انطفأ المحرك مرتين أثناء سفري إلى هنا... لكنني لم ألق متاعب فيما بعد... لقد أجريت الكشف السنوي عليها منذ أسبوع فقط. اشكر لي كارل على فحص المحرك... أتسمح دوغلاس؟

فهز دوغلاس رأسه «سأفعل» ثم خرج. بعد خروجه راح الرجلان يناقشان أمور الأفراس الحاملة التي جاء فرانك لرؤيتها وبهذا تجاهلا ذلك التوتر القصير الذي بدا بينهما منذ لحظات. أو ربما تعمدا نسيانه.

●●●

٨ ـ عاصفة من لهب

ـ هل لك أن تصحبني في نزهة في الطائرة سيد ريتشارد؟

سؤال دايفد، قاطعه احتجاج نيكول الحاد:

ـ دايفد!

فنظر إليها الصبي مقطباً:

ـ لكنني لم أركب الطائرة بعد.

فاعتذر فرانك ريتشارد:

ـ ليس هذه المرة. لا استطيع اصطحابك لكن ربما في المرة القادمة سيكون لدي وقت أطول. أما الآن فأنا مضطر للعودة، فابني الصغير ينتظرني.

والتفت إلى نيكول:

ـ شكراً لك حسن ضيافتك واستقبالك.

ـ لا حاجة للشكر أنت على الرحب والسعة متى شئت.

انحنى فرانك إلى غلينا فقبلها قائلاً:

ـ سأجلب جشوا معي المرة القادمة.

رافقه مارك إلى الطائرة... خلال نهاية الأسبوع راقبت نيكول النظرة غير العادية التي كان مارك يحدق فيها إلى ضيفه... وهذا أمر طبيعي... فالسيد ريتشارد رجل يحترمه

www.elromancia.com

الجميع ويعجب به، أكان يكرهه أم يحبه.

أفلتت منها تنهيدة صغيرة بعد انضمام مارك إليها مع غلينا ودايڤد. واخذت ترنو إليه بطرف عينيها فتساءلت بحزن عما إذا كانت في يوم من الأيام ستفهم هذا الرجل الواقف إلى جانبها... زوجها... الأسمر الوسيم... إنها تعرفه بطريقة حميمة جداً... لكنها لا تعرفه أبداً.

تساءلت كذلك إذا كانت يوماً ستتمكن من حل لغز عواطفها الغامضة نحوه... فهي من ناحية تكرهه بسبب الطريقة التي يستغلها بها. ومن ناحية أخرى، تستمر في الغرق في نارها الداخلية كلما لمحته ودون أن يقترب منها.

انطلقت الطائرة الحمراء الصغيرة إلى الجو. ولوّح فرانك لهم وهو يرتفع. بينما كانت تراقب الإطارات ترتفع عن الأرض تساءلت عما إذا كان فرانك ريتشارد يفهم زوجها أو لا... إذا كان يقدر أن يفسر البرودة التي تغلفه دائماً. فمن خلال الزيارات القليلة التي كانت تقوم بها للعمة روز لم تتمكن العجوز من شرح برودته ولا عدم اهتمامه بالناس.

ضاعت في أفكارها، فراحت تنظر باتجاه الطائرة دون أن تراها... ولم تسمع الاصوات التي صدرت عن محركها... فأمسكت أصابع دايڤد الصغيرة بذراعها:

ـ ما بال الطائرة نوني؟

فالتفتت لترى أن المحرك قد توقف تماماً. وبدأت الطائرة تهبط بسرعة نحو الأرض، وتتجاوز نهاية المدرج لتهبط فجأة في مكان خالٍ ليس فيه إلا بضعة أشجار.

فجأة لمحت سيارة مارك متجهة نحو الأرض المليئة بالعشب حيث حطت الطائرة، ثم لاحظت أن مارك لم يعد قربها... فبينما كانت مشلولة التفكير والحركة بما يحصل أمامها، كان هو قد بدأ التحرك.

أمسكت نيكول بكتفي غلينا، وجهها رفيع أصفر كوجهها تماماً:

ـ غلينا اركضي إلى الحظائر واطلبي المساعدة بأسرع وقت ممكن.

ركضت الفتاة بسرعة دون أن تتفوه بكلمة يتبعها دايڤد وركضت نيكول باتجاه الطائرة... أثناء ركضها سمعت صوت تحطم المعدن والأشجار... وبدا لها هذا يستمر إلى ما لا نهاية.

ما إن وصلت إلى نهاية المدرج الترابي، حتى سمعت صوت شاحنة صغيرة قادمة من خلفها... فالتقطت أنفاسها قرب شجرة، ونظرت إلى المساعدة التي أسرعت فاندفعت إلى الأمام، لكنها لمّا وصلت إلى موقع سقوط الطائرة التوت معدتها بالغثيان من مرأى هيكل الطائرة المحطم... وملأ الذعر قلبها... وتأكد لها أن ما من أحد قد ينجو منها. ثم انتبهت إلى أن مارك يحاول فتح باب فرانك المحطم... فمزقت العبرات حنجرتها وهي ترى جهده الكبير دون طائل.

توقفت الشاحنة الصغيرة خلفها... فنظرت بعينين مصدومتين إليها من فوق كتفها فوجدت الرجال يقفزون منها، لكنها ركزت نظرها على كتفي دوغلاس العريضتين... ثم

سمعت صوت تكسر الزجاج، فالتفتت لتجد مارك يحطم النوافذ ويزيل المكسور منها عن الطائرة.

ثم غشي بصرها... في البداية ظنتها الدموع. لكن رئتيها اتسعتا ببطء وخوف وهي تتعرف إلى سبب غشيان بصرها. فقد تصاعدت ألسنة النار حوله. وخرج الهواء من رئتيها بصراخ يقطع القلوب:

- مارك... مارك!... لا!

امتلأت ذعراً لأنها ظنته سيموت مع فرانك... واصبحت النار الآن أكثر بروزاً... وكانت تأكل بنهم ما تبقى من الذيل باتجاه غرفة القيادة، وباتجاه الجناحين حيث الوقود. في تلك اللحظات الخطرة الداهمة، علمت نيكول أنها لا تريد موت مارك... كما كانت تتمنى... بل أنها تحبه! وتريده حياً!

ثم بدأت تركض نحو الطائرة وهي تصرخ وقد أعانها الخوف وحده على التحرك. وبدأ الدخان الأبيض الرمادي يتصاعد وينقلب إلى أسود، حاجباً عنها مارك... ثم أحست بكتفيها تقعان في قبضة يد صارمة. فقاومت دون جدوى لتفلت منها تصرخ منتحبة باسم مارك.

ثم سمعت صوت دوغلاس يقول بغضب:

- ستقتلين نفسك هكذا!

فصاحت:

- لا يهمني...! يجب أن أصل إليه... مارك...

وتدفقت الدموع من عينيها عندما لم يصغ دوغلاس لتوسلاتها... ثم سمعته يهمس:

- يا إلهي!

فأدارت رأسها إلى الوراء... فشاهدت طيفاً أسود يبرز من بين الدخان واللهب... فصرخت صرخة حادة من الارتياح وقد تعرفت إلى مارك يحمل فرانك ريتشارد على كتفه... ثم... وصل اللهب إلى خزانات الوقود. وإذا بقوة الانفجار ترمي بنيكول أرضاً، وإذا بدوغلاس يستلقي فوقها ليحميها من الشظايا.

وارتفعت ألسنة اللهب والدخان ككرة كبيرة في الهواء. وأحست بهواء حار لاذع يدخل رئتيها قبل أن يدفعها دوغلاس بعيداً عن اللهب... كانت أغصان وأوراق الأشجار الخضراء القريبة قد تحولت إلى رماد يطير في الهواء.

قوة يدي دوغلاس، دفعتها عدة أمتار، لكنها لم تكن تفكر بإنقاذ نفسها... فارتدت عائدة وهمها كل همها أن تصل إلى مارك... اتجهت أيدي الرجال إلى الهدف نفسه، يتسابقون نحو جسدي الرجلين المنبطحين أرضاً، كان جسد مارك فوق جسد فرانك، لحمايته من اللهب المتفجر.

اثنان من الرجال أوقفاه على قدميه، فبدا واعياً بعض الشيء... وقادوه، أو نصف حملوه، إلى مكان آمن من النار المشتعلة. أما الآخرون، ودوغلاس بينهم، فقد شكلوا حمالة بشرية من أيديهم ليحملوا فرانك ريتشارد الهامد إلى مكان آمن.

ثم بدأت صفارات الانذار من سيارات الإطفاء والاسعاف تتناهى من بعيد، بينما حملت الساقين المرتجفتين نيكول إلى مارك الذي تلطخ صدره بقع من الدماء بينما حرق اللهب نصف

شعره ولذع ذراعيه ويديه.

أخذت تنتحب وهي تسأل:

ـ مارك... هل أنت بخير...؟ هل أصبت بأذى؟

ـ لا تقلقي علي.

رغم قساوة كلماته كان في نظرته لمعان غريب وهو يبعدها عنه... فقد سدت عنه رؤية رجلين ينحنيان فوق فرانك ريتشارد... فأردف:

ـ يجب أن نوصله إلى المستشفى.

وصل دوغلاس قربهما:

ـ سيارة الاسعاف وسيارات الاطفاء وصلت... لكن... أخشى أن يكون الوقت متأخراً.

مسحت الكلمات نظرة الألم على وجهه وبسرعة البرق دفع يد دوغلاس عنه، وصفعه بمؤخرة يده فرماه أرضاً. وصاح:

ـ لا! اللعنة! لم يمت! كان حياً عندما أخرجته من الطائرة!

صاحت نيكول وهي تحاول منعه من الركض نحو الجسد المسجى دون حراك.

ـ اوه... مارك... لا تفعل، لا تذهب إلى هناك!

لكن الأيادي الوحيدة التي احترمها وتوقف معها كانت أيدي رجال الاسعاف الذين وصلوا إلى مكان الحادث... أرعبتها النظرة في عينيه وهو يحدق في الجسد المضرج بالدماء أمامه.

سمعت أحد المسعفين يقول:

ـ إنه ينزف بقوة داخلياً.

وهمس آخر:

ـ إنه ضعيف...

وضع الجسد على الحمالة ببراعة ومنها نقل إلى سيارة الاسعاف. فلحق بهم مارك... وكأنه مربوط بحبل غير مرئي إلى فرانك الحي الغائب عن الوعي.

بينما أبواب السيارة تقفل، التفتت نيكول لدوغلاس.

ـ أحضر العمة روز لتعتني بالولدين.

دون أن تعطيه فرصة لمعرفة ماذا ستفعل أسرعت إلى السيارة التي قادها مارك إلى مكان الحادث، وجلست خلف المقود... فتبعت سيارة الاسعاف التي أطلقت صفارتها.

في المستشفى، أرشدت الممرضة نيكول إلى قسم الجراحة، وهناك... وجدت مارك يجلس على أريكة عند آخر الممر. كان يميل إلى الامام، ومرفقاه على ركبتيه، ويداه متشابكتان أمامه، يحدق في ذهول إلى باب كتبت عليه كلمة «غرفة العمليات»... انتقلت عيناه إليها وهي تجلس قربه تلف ذراعها خصره دون أن تتفوه بكلمة مواساة... فكل ما ستقوله في هذه اللحظات لا معنى له.

سارت الدقائق ببطء لا نظير له. وانتظرا بصمت دون تفكير. كان مارك كالتمثال المنحوت من الحجر... متوتراً متصلباً لا تتحرك فيه إلا عيناه اللتان كانتا تلاحقان كل شخص يدخل أو يخرج من أبواب قسم الجراحة.

فجأة، لاحظت عيناه تضيقان وهما تريان رجلاً قصيراً عجوزاً يخرج من باب غرفة العمليات. لا يرتدي ثياب العمليات الخضراء المألوفة... بل رداءً أبيض يصل إلى ساقيه، يسير

متجهاً نحوهما، وعلى وجهه ترتسم خطوط الحزن، فصاح بمارك.

ـ أعتقد أنني قلت لك دع أحداً يهتم بيديك.

ـ إنها مجرد خدوش.

ـ خدوش؟ إنها مليئة بالتراب والزجاج... لا يمكنك فعل شيء هنا سوى الدعاء... فإما أن يبقى في الداخل بضع ساعات ليجمعوا ما تحطم منه، أو ينتهي أمره في دقائق.

فحدق مارك فيه متحدياً، ثم قال بصوت هادىء:

ـ فرانك سيعيش.

ـ هل تسألني أم تقول لي؟ فإذا كنت تسألني، فالوحيد القادر على الرد هو الله القدير... فكل ما بوسع البشر فعله فعلناه... والسلطات أبلغت عائلته.

فقالت نيكول:

ـ زوجته...

ـ ستصل في طائرة خاصة... مع أنني لا أعلم من أين أتتها الشجاعة للطيران بعدما أصاب زوجها.

مد الرجل يده يمسك ذراع مارك.

ـ تعال... سأنظف لك جروحك.

حاول مارك المقاومة... لكنه عاد فوقف على قدميه بنفاذ صبر ولحق بالرجل... وهذا ما فعلته نيكول أيضاً... بعد أن أغمضت عينيها برهة وهي ترى منظر الجروح في ذراعيه. فعمق حبها له جعلها تحس بالألم بدلاً عنه.

ثم استعادا مكانهما يراقبان بصمت باب قسم العمليات وقد

عاد قميصه الملطخ على كتفيه والتفت يداه بالأربطة... بعد قليل أتتهما الممرضة بالقهوة، التي ارتشفتها نيكول، بينما تجاهلها مارك.

المزيد من الوقت... وتعالى وقع أقدام خفيفة مسرعة في الممر، ترافقها خطوات رجل... فوقف مارك على قدميه عندما ظهر دوغلاس ترافقه امرأة جميلة ذات شعر بني، سارت مباشرة نحو مارك، تمد يديها إليه وهي تبتسم بغباء.

سأل دوغلاس نيكول بصوت خافت:

ـ هل أنت على ما يرام؟

فردت الهمس بهمس:

ـ أجل.

فقال شارحاً:

ـ اتصل بي الدكتور سام واقترح أن أقابل زوجة فرانك في المطار.

لم تحس بيد دوغلاس المواسية الموضوعة بشكل عفوي على مؤخرة خصرها لأن عينيها كانتا تنظران بعجب إلى المرأة التي خرج صوتها الرزين عندما تكلمت:

ـ لقد أخبرني دوغلاس عن الطريقة التي خاطرت بنفسك فيها لانقاذ فرانك.

قالت كلمات الشكر هذه بهدوء ودون أي أسى. ثم تابعت المرأة:

ـ لا كلمات قد تعبر عن مدى شكري.

ـ ستكون كلمة شكر من فم فرانك كافية.

التفتت ستايسي تلحق بنظر مارك إلى باب غرفة العمليات.

ـ أما زال هناك؟

وارتجفت، ثم ضمت ذراعيها فوق صدرها وكأنما تبعد البرد عنها، فرد مارك بصوت ضعيف:

ـ يقولون إنه سيمضي وقتاً قبل أن يخرج.

مرت ساعتان قبل أن يطل رجل طويل من الباب قلقاً، متجهماً على فمه كمامة طبية فقال الجراح لهم إن فرانك نجا من العملية، بأعجوبة... فإصاباته بليغة وخطيرة تتنوع بين الجروح والكسور. فسألت زوجته بهدوء:

ـ متى أستطيع رؤيته؟

ـ سيخرجونه بعد قليل من غرفة الاستراحة إلى العناية الفائقة... عليكم الانتظار... إنه يقاوم بكل ذرة فيه للحياة، سيدة ريتشارد... هذا كل ما استطيع قوله لك.

ـ شكراً لك.

انحدرت من عينها دمعة كانت الوحيدة التي لاحظتها نيكول، بينما صدرت عنها هي تنهيدة ارتياح، فانخفض بصر دوغلاس إلى وجهها بقلق وتفهم. لكن ما إن غادر الطبيب حتى أخذ التوتر معه، فسار مارك إلى النافذة لينظر إلى غروب الشمس والسماء تلتف بغلالة قرمزية... لم تستطع نيكول منع نفسها عن اللحاق به، فسألها دون أن ينظر إليها.

ـ هل تعتني روز بالولدين؟

ـ أجل.

ـ سوف يعيش.

ـ أجل.

ـ سأرسل دوغلاس إلى المزرعة... أعرف أنك تودين العودة معه، لكنك ستبقين مع ستايسي.

اندفع وجه نيكول جانباً وكأنه صفعها وقالت تحس بألم حاد:

ـ كنت سأبقى في مطلق الأحوال... فأنت لست في حالة تسمح لك بقيادة السيارة إلى المنزل.

نظر إلى ضمادات يديه وكأنه نسيها... ودون أن يرد عاد إلى مقعده حيث كانت ستايسي تنتظر. إنه يملك دائماً القدرة على إيلامها... لكنها الآن، وقد اكتشفت حبها له... غدا الألم كبيراً كبيراً.

عند منتصف الليل، سمح لستايسي بأن ترى زوجها. لكنها عادت إلى قاعة الانتظار صفراء شاحبة، لا تكاد تتمالك نفسها فحالته ما تحسنت ولا ساءت.

الطبيب الذي نظف جروح مارك... أقبل مسرعاً عبر الممر في الثانية صباحاً... عندما رآه مارك، أجفل فسأله:

ـ ماذا حدث سام؟

ـ أما زلت هنا هاموند؟

ـ ماذا حدث؟

ـ صديقك ليس المريض الوحيد في هذا المستشفى... وستكون أنت التالي إذا لم تسترح.

ثم نظر الرجل نظرة إلى نيكول:

ـ رافقي زوجك إلى البيت، فسيتألم يومين ومن الأفضل أن

ينام الآن... لقد رتبت أمر إقامة السيدة ريتشارد هنا، وستعنى بها الممرضات كما يعتنين بزوجها.

ـ لست بحاجة للنوم.

ـ اخرج من المستشفى أو أجعلهم يرمونك خارجاً.

لكن تهديده لم يؤثر في مارك، فتنهد وظهر الجد على وجهه.

ـ سأبلغك بنفسي إذا طرأ أي أمر مارك... أرجوك عد إلى بيتك.

أضافت ستايسي بصوت ناعم:

ـ أرجوك مارك... أنت ونيكول فعلتما الكثير حتى الآن، وإذا لم يتصل الطبيب... فسأفعل أنا.

كان بإمكان نيكول أن تضيف رجاءها، إلا أنها تعلم إنه لن يصغي لها... وأطاع للمرة الأولى مارك أوامر الآخرين وما هي إلا دقائق حتى كانا في السيارة باتجاه المزرعة. لم يتكلما كلمة واحدة إلى أن أوقفت نيكول السيارة أمام المنزل، فسألته:

ـ هل تريدني أن أساعدك على الاغتسال؟

فرفض بحزم:

ـ سأتدبر أمري.

عندما دخلا المنزل، أطلت روز من غرفة الاستقبال ترتدي روباً طويلاً يخفي ثياب نومها، ولم ينظر مارك إلى عمته، بل سار إلى غرفته، وترك نيكول تخبر روز بما جرى. تمتمت المرأة، تهز رأسها بقلق بعد إنهاء نيكول رواية الخبر.

أحست نيكول بموجة قيء وهي تتذكر الرعب الذي مرت به

لكنها تمالكت نفسها لترد:

ـ ما زلت لا أصدق كيف أخرجه مارك من الطائرة قبل أن تنفجر.

كانت عينا العجوز تحدقان بعيداً وهي تقول:

ـ لقد اتهمته مرة أنه لا يمتلك أية مشاعر، وكنت مخطئة! كم كنت مخطئة!

لمعت عينا نيكول اللوزيتين إدراكاً فرد فعل مارك كان عاطفياً، ليس لأنه أنقذ فرانك لكن لأنه أيضاً رفض أن يعترف بموته كما رفض أن يهتموا به وبجراحه هو، إذن هو قادر على الإحساس بكل العواطف العميقة، وتلك القوقعة الباردة القاسية ما هي إلا ستار خارجي لم يتخطه أحد بناظريه حتى اليوم. واحست بقفزة قوية في ضلوعها. وقالت لها روز:

ـ لا بد أنك تعبة. الولدان نائمان في فراشهما وآن لك أن تحذي حذوهما.

ـ أجل... أنا تعبة.

ـ سأحضر الفطور في الصباح للولدين.

ـ أرجوك أن توقظينا إذا تلقينا اتصالاً هاتفياً من المستشفى.

تركتها ثم لحقت بمارك فقالت روز:

ـ سأفعل... مهما كان نوع الخبر.

كانت غرفة النوم مضاءة وقميصه الملطخ بالدم في الحمام وآثار اغتساله كذلك. لكنه لم يكن موجوداً. فتقدمت على رؤوس أصابعها إلى غرفة غلينا، ثم إلى غرفة دايفد، لعلها تجده هناك... ولم تجده في أيهما.

ثم شاهدت من النافذة أن السيارة ما زالت هناك. ففتشت الغرف ووجدت نوراً ينبعث من مكتبه... عندما دخلت ثانية إلى غرفة الجلوس أحست بالهواء البارد يلفح وجهها لأن أبواب الشرفة مفتوحة.

خرجت نيكول إلى الظلام في الخارج... فشاهدته هناك. كان يجلس في أحد الكراسي مادّاً ساقيه يحدق إلى النجوم والبدر فحاولت التكلم، لكنها لاحظت كوب عصير في يده المضمدة فوقفت تراقبه. كانت أصابعه تتحرك حول الكوب وكأنه يحاول تحطيم الزجاج... فلم يلاحظ السائل وهو يندلق عن الجوانب. فتمتمت بهدوء:

ـ من المفترض أن تشرب العصير لا أن تدلقه على أرض الشرفة.

فتنهد دون أن يجيب، مع أنها لاحظت أن نظرته تحولت إلى وجهها. فابتسمت له بلطف، لأن حبها له تحول إلى ألم جسدي لها.

ـ تكاد الساعة تتجاوز الرابعة... ألن تأوي إلى الفراش؟

وقف بتردد وببطء على قدميه لكنه لم يتحرك ليدخل المنزل. في هذه اللحظة أرادت أن تخبره بأنها تفهم عذابه الصامت الذي يمر به. لكن الخوف من رده اللاذع أخرسها والخوف من أن يرفض عطفها منعها فما كان منها إلا أن وقفت قربه تتساءل عما إذا كان يجب أن تكرر طلبها... أم تتركه وحده. لكنها قررت الكلام:

ـ مارك... أنت بحاجة إلى الراحة.

فرد بصوت أجش دافىء:

ـ صحيح؟

ـ أجل...

التفت بسرعة ليواجهها لكن قسمات وجهه كانت مخبأة في العتمة، ونور القمر الفضي خلف رأسه.

ـ منذ متى لم ألمسك أيتها القطة المتوحشة؟

خلف كلماته المداعبة خشونة وسخرية تعرفها جيداً. وهددتها ساقاها بالانهيار، لكنها رمت بالمشاعر التي أثارها سؤاله جانباً وقالت:

ـ أرجوك مارك... أريدك أن تستريح.

خرجت ضحكة خافتة من وجهه المظلل.

ـ لكن هذا ما لا أريده أنا.

شهقت عندما أحست بيديه تطبقان على خصرها وتجذبانها إليه... وقبل أن تتمكن من السيطرة على بدء انفجار مشاعرها، كانت شفتاه قد أطبقتا عليها... بينما طوقت ذراعاه المضمدتين خصرها.

ثم تركها فجأة كما عانقها، فأفلتت منها آهة وهي تحس ثانية بالنار تتأجج في داخلها... جرها بين يديه عبر بوابة الشرفة، ثم أقفلها... وحملتها ساقاها بارتجاف فسارت إلى جانبه... لكنه التفت وحملها بين ذراعيه تشد خشونة ضمادتيه على ذراعيها العاريتين. وكسر الشعور الإحساس بسحره فاحتجت بضعف:

ـ مارك... ذراعاك... أنت مجروح!

لم يرد عليها إلا بعد أن وصل بها إلى غرفة النوم. حيث ترك قدميها تتدليان على الأرض، في حين بقيت ذراعاه تمسكان بها تلصقانها بجسده، ثم راح يمسح بإحدى يديه شعرها عن وجنتها... وتمتم:

- إذن لا تقاوميني كثيراً الليلة نيكول.

عصف قلبها بجنون بعد أن أضاء وجهه نور المصباح قرب السرير... فإذا بضغط فكيه يمتد إلى فمه... لكن كان في عينيه لمعان غريب. لمعان الرغبة... الرغبة فيها!

● ● ●

٩ - لا تطفىء ابتسامتي!

تراقصت أشعة الشمس فوق وجهها تدفىء بشرتها بقبلتها الذهبية، فطوت نيكول نفسها أعمق، بين الذراعين القويتين اللتين تحتضنانها.

همس صوت خفيض في شعرها:

- ظننتك ستنامين حتى الظهر.

أبقت نيكول عينيها مغمضتين بشدة، تبتسم حالمة وتحرك رأسها ببطء تحت ذقن مارك. كانت رائحة بشرته نفاذة كالمخدر، وأحست بالخوف من أن تتكلم، لئلا يبدّد الكلام سحر الحب الذي غمرها بطلاسيمه.

قال لها مارك وهو ينقلها إلى وضع أكثر راحة مما قربها أكثر إلى وجهه فوق الوسادة:

- أنت مخلوقة تثيرين الحيرة نيكول.

- لماذا؟

لم تتغير ابتسامتها وهي تتلفظ بالسؤال... ثم فتحت عينيها لتتركهما تعبان حتى الثمالة من وسامة وجهه... في عينيه لمعان الجاد الذي يمر بكسل فوق قسماتها. تجاهل سؤالها بعجرفته المعتادة، وقال آمراً بهدوء... أقرب إلى الطلب:

www.elromancia.com

ـ أنا جائع... انهضي من الفراش وحضري فطوري.

سحبت نفسها على مضض من بين ذراعيه فافتقدت على الفور دفء صدره... في ظلمة الليل تمكنت بسهولة من إخفاء حبها عنه... لكن أشعة الشمس البرّاقة لا بد أن تكشف هذا الحب الذي لم تكن مستعدة بعد للاعتراف به.

كانت ترغب في الاحتفاظ بسرّها لنفسها خلال الفترة القادمة... فمارك دقيق الملاحظة جداً، ولن تتمكن من اخفاء الرّغبة مدة طويلة. لكنها في الوقت نفسه تريده أن يعرف... إنما في وقت لا يكون فيه مثقلاً بأحداث كأحداث ليلة أمس.

ثوبها الذهبي اللون كان ملقى قرب السرير، فمدت يدها إليه وهي تنزلق من تحت الأغطية، لترتديه بسرعة، واقفلت ياقته حتى العنق، ثم نظرت إلى مارك، الذي كان قد دفع نفسه للجلوس والوسائد خلف ظهره حيث بياض ضمادتي يديه يتناقض مع سمرتهما وسمرة صدره ووجهه، أخذ ينظر إليها باسترخاء وتفكير. فسألته:

ـ بيض ولحم؟

هزّ رأسه، فسارت نحو الباب.

ـ لن أتأخر... أتحب أن أحضر فطورك على صينية؟

ـ لست معاقاً، لكن إذا لم أكن جاهزاً عندما يجهز الطعام فأحضريه إلى هنا.

كانت عقارب ساعة المطبخ تشير إلى منتصف الصباح... غلينا في المدرسة، ومن النافذة فوق المغسلة شاهدت نيكول العمة روز تجلس على كرسي في الشرفة... فعلمت أن دايفد

يلعب في مكان ما قربها.

بينما كانت شرائح اللحم في المقلاة، انفتح باب المطبخ الموصل إلى الخارج، فالتفتت نيكول مبتسمة سعيدة لتحيي روز، لكن من دخل كان دوغلاس، الذي توقف عند رؤيتها تعابير وجهه المرحة عادة، متجمدة الآن.

ـ صباح الخير دوغلاس.

بعض السعادة التي تفور في نفسها من نبع حبها الخالد تسللت إلى كلامها فأضفت على صوتها رنّة المرح. فتحرك فمه إلى ابتسامة لم تصل إلى عينيه، بعد أن ردت له تحيتها القدرة على الحركة قال:

ـ صباح الخير نيكول... جلبت البريد معي.

ورمى من يده رزمة صحف ومجلات ومغلفات على الطاولة.

ـ هل فيها شيء مهم آخذه لمارك؟

ـ لم الحظ شيئاً... هل تحضرين له الفطور؟

ـ أجل... إنه في الفراش.

كان في صوتها خشونة سببتها ذكرى حبه في الساعات التي سبقت الفجر.

ـ تبدين مفعمة نشاطاً هذا الصباح. هل هناك سبب محدد؟

توقفت الملعقة الكبيرة في يدها فوق المقلاة، ثم أجابت بعد أن تذكرت مشاعره نحوها: «أجل».

ـ إنها نظرة امرأة واقعة في الحب... ربما؟

احنت رأسها للحظة، متمنية ألا تؤلمه. ثم التفتت ببطء

إليه، تنظر إليه باعتذار، لا بندم. قالت بلطف:

ـ بالتأكيد توقعت ما هي عليه مشاعري قبل الآن دوغلاس؟

نظر إليها نظرة ألم سوداء، تلاشت تماماً وهو يقول:

ـ أعتقد أنني لم أصدق ما توقعته.

ـ لكنه حدث. ولن أغيّر مشاعري نحوه ولو ملكت مال الدنيا.

حرك ساقيه الطويلتين نحوها ببطء متعمد وهو يتفرس في كل جزء من أجزاء وجهها.

ـ أريد لك السعادة نيكول... هل لي أن أقبل العروس السعيدة؟

ترددت لحظات قبل أن تسمح بتقبيلها...

أمسك وجهها بكلتا يديه وكأنه يريد أن يطبع كل ذرة من قسماته داخل ذاكرته... فترقرقت الدموع من عينيها وهي ترى ألمه... مرت القبلة بسرعة وحرارة، ثم ارتدّ عنها وألم الخسارة يغضنّ تقاسيم وجهه، ثم خرج مسرعاً لا يلوي على شيء. رغبت نيكول في أن تناديه لتقول له ما قد يخفف ألمه... لكنها هي سبب هذا الألم... ولن تتمكن من تقديم أي عزاء له.

تلاشى بعض فرحها، أو على شكل أصح، صحت من نشوتها على اكتشاف جانب الحب الخشن الآخر. فعادت لتكمل إعداد الفطور... بعد دقائق كانت تصب البيض فوق اللحم الساخن. ثم وضعته على الصينية وأضافت العصير والقهوة والخبز المحمص. وانطلقت تدندن اغنية لنفسها وهي تتجه إلى

الباب الذي انفتح بقوة قبل أن تبلغه ليدخل دايڤد متعثراً هائماً بجذل:

ـ صباح الخير ناني.

ـ صباح الخير دايڤد... صباح الخير روز.

فسألها دايڤد:

ـ هل تتناولان فطاركما الآن...؟ أنا سأساعد روز بتحضير الغداء.

فغمزت له:

ـ سآخذ الفطور إلى مارك وأعود لمساعدتكما.

فقطبت روز بدهشة.

ـ مارك ليس هنا... لقد تحدثت إليه في الخارج منذ برهة... إنه في طريقه إلى المستشفى.

فحدقت نيكول في المرأة العجوز مذهولة:

ـ لكنه طلب تحضير الطعام.

ـ لست أدري... لكنه قال إنه اتصل بالمستشفى... وقد بدا على غير ما يرام. ربما لأن المعلومات التي تلقاها لم تكن جيدة. وأتصور أنه نسي الطعام.

فتمتمت نيكول باحتجاج.

ـ لِمَ لم يخبرني؟

فردت روز:

ـ ليس من عادته أن يخبر أحداً بما يفعله.

هذا صحيح... فهي لا تكاد تعرف ماذا يفعل أو أين يكون خلال النهار... لا بد أن يكون تصرفه هذا نابع من قلقه على

فرانك ريتشارد. ولن تتخذ هذا محملا عليه.

لم يرجع مارك لتناول العشاء، الذي أخرت تقديمه حوالي الساعة. كذلك لم يأتِ دوغلاس الذي أرسل كلمة إلى المنزل يقول فيها إن العمل اضطره إلى أن يكون في الجهة الأخرى من المزرعة... وبعد أن عادت روز إلى منزلها، بقيت غلينا ودايفد ونيكول وحدهم على طاولة الطعام الكبيرة.

بعد منتصف الليل، سمعت نيكول سحق الحصى تحت عجلات سيارة. فنزلت عن الأريكة وأغلقت كتابها، الذي قرأت منه بضع صفحات خلال ساعاتٍ طويلة دون فهم كلمة منها. أسرعت إلى فتح الباب قبل أن يلمس مارك الأكرة.

ـ مرحباً.

رافقت البسمة تحيتها المقطوعة النفس. فنظر إليها بتعب وهو يدخل.

ـ ظننتك نائمة.

ـ كنت أنتظرك. فلست متأكدة إن كنت تناولت الطعام كما أردت معرفة حالة فرانك.

ـ ما زالت خطرة، لكنه يتحسن، كما يقول الأطباء. ولست جائعاً... لقد تناولت الطعام مع جانيت في مطعم المستشفى.

ـ جانيت؟ أنت تعني ستايسي.

ـ لا... لقد أرسلنا لها صينية طعام كي تبقى قرب فرانك.

تبعته وهو يتجه إلى غرفة نومهما، خلع سترته خلال سيره... فحاولت تجاهل الإحساس بالخواء في قلبها عندما سألته:

ـ ماذا كانت تفعل جانيت هناك؟

ـ سمعت بالحادثة، فجاءت تطمئن على فرانك، وترى إذا كان هناك ما يمكنها تقديمه من مساعدة.

ـ وهل تعرف... فرانك وستايسي؟

فرد ساخراً:

ـ لا... فهي دائماً تقدم تعاطفها للغرباء... بالطبع تعرفهما!

عندما كان يخلع كم قميصه أجفل ألماً لأنه علق بطرف الضمادة. فسارعت إليه تزيح القماش عن ذراعه:

ـ دعني أساعدك.

فجذب ذراعه منها ينظر إليها بشراسة:

ـ وفري أمومتك للأولاد فأنا لا أحتاجها.

كبرياؤها الجريح جعل رأسها يشمخ متحدياً وذلك أثناء ابتعادها عنه تاركة إياه يفعل ما يشاء وحده، وبدأت تستعد للنوم محاولة إقناع نفسها بأنه متعب وقلق. حين كانت تلبس فستان النوم سمعت صوت السرير يتقبل ثقل جسمه... فقالت له:

ـ روز قالت إنها ستجيء لتبقى مع الولدين غداً.

ـ ولماذا مجيئها؟

ـ لألازم ستايسي.

ـ لا حاجة إلى ملازمتها.

ـ لماذا لا...؟ لقد طلبت مني هذا ليلة أمس.

ـ هذا لأنك كنت حاضرة هناك.

ـ أظن جانيت ستكون في المستشفى غداً.

ـ أجل... ستكون هناك، وأنا كذلك. أنت غريبة بالنسبة لستايسي... أنا وجانيت نعرفها منذ تزوجت فرانك... ثم أن الأمر هكذا أنسب.

ـ ولماذا أنسب؟

ـ لأن لجانيت شقة في المدينة وبإمكانها الوصول إلى المستشفى في دقائق إذا احتاجتها ستايسي.

احست بارتجاف ذقنها وهي تنظر إليه، ثم قالت ساخرة:

ـ ربما من الأفضل لك البقاء هناك. فهذا «أنسب» من سفرك جيئة وذهاباً.

ـ سأفكر في الاقتراح.

ثم اضطجع على جانبه بغية النوم.

لكن ارتجاف ذقنها كان البداية لارتجافات اخرى سرت في جسدها. فأحست بعواطفها المرتبكة المشوشة تتوتر... ورغبت في أن تصرخ فيه طالبة منه العودة إلى جانيت... بل أرادت أن ترميه بكل ما تقع يدها عليه، لتخرجه من قلة اكتراثه ولو اكتسبت غضبه... وأرادت أن تدفن رأسها في الوسادة وتبكي بكل احباطها وهشاشة حبها... والأنكى من هذا أنها أرادت أن تلمسه، وأن تعتذر له، وأن تجعله يفهم أنها لم تكن تريد مخاصمته بل حبه.

في النهاية لم تفعل نيكول شيئاً من هذا، فأطفأت مصباح السرير واندست تحت الأغطية واستلقت في صمت تصغي إلى رتابة تنفسه... لماذا ظنت أن هناك شيئاً ما تغير؟ هل هذا بسبب وقت قصير من الحب شاركها به ليلة أمس!

استيقظت في الصباح التالي على صوت أبواب الخزانة تفتح وتغلق. راقبته عبر أهدابها يرتدي قميصاً أزرق وبنطلون جينز يناسبه، وكأنه أحس بعينيها فالتفت إليها. فأجبرت عينيها على أن تنفض النعاس عنهما. فقال لها ببرود:

ـ لا تزعجي نفسك بتحضير فطوري.

ـ ألن تعود إلى العشاء الليلة؟

ـ إن لم أعد تناولي الطعام بدوني.

أعلمتها طريقته في الإجابة أنه لن يعود. وهذا يعني أنها ستقضي يومها وليلتها في عذاب خوفاً من أن تكون كلماتها قد دفعته نحو جانيت... مع أنها تدرك تماماً أن ما من أحد قد يدفعه إلى عمل لم يخطط له.

رفضت أن تذل نفسها بانتظاره ثانية، فسارعت إلى الفراش بعد أن نامت غلينا ودايڤد... فراحت تتقلب في فراشها إلى أن غلبها نوم مضطرب، لكنها لم تسمعه عندما عاد، والدليل الوحيد على عودته كانت ملابسه المرمية على الكرسي والوسادة المشعثة إلى جانبها.

يومان مرا لم تشاهده فيهما بل كانت ترى دلائل على عودته... بعد ظهر اليوم الثالث، كانت مع غلينا ودايڤد في الحظيرة حيث عاود دايڤد دروس الركوب التي انقطعت، لكنها هذه المرة كانت بإشراف دوغلاس، بعد أن توسل إليه دايڤد في الأمسية السابقة.

كان دايڤد يدور بجواده حول الحظيرة عندما تعثرت قائمة الجواد الأمامية بنتوء ترابي انحنى لها إلى الامام بسرعة قبل أن

يستعيد وضعه السوي. هذه العثرة الخفيفة كانت كافية ليفقد فيها دايڤد توازنه ويسقط إلى الأرض. ووصل إليه دوغلاس في اللحظة التي كان فيها على وشك الصراخ.

ـ اوه... دايڤد حبيبي... هل أنت بخير؟ (صاحت نيكول).

ساعده دوغلاس على الوقوف... فطوقت ذراعاه الصغيرتان عنق نيكول التي أصبحت على مقربة منه وأجهش بالبكاء إلى أن جاءه أمر بات حازماً من خلفهم:

ـ أعيديه على ظهر الجواد.

لكنها وبينما كانت تلتفت لتنظر إلى مارك المقبل إليها كانت ذراعاها تشتدان حول الصبي.

ـ إنه متألم. (قالت)

لكن يدي مارك جذبتا الطفل منها رغم تمسكه الشديد بها متجاهلاً بذلك صرخات دايڤد كلها، ثم حمله وأعاده إلى ظهر الجواد الواقف وأعطاه اللجام.

فصاح دايڤد صارخاً:

ـ ناني...!

تمسك بمقدمة السرج بكل قوته متجاهلاً اللجام الذي وضعه مارك بين يديه... وحاولت نيكول انقاذه، لكن ذراع مارك أبعدتها عنه فصاحت:

ـ أيها الحيوان الظالم القاسي! ألا تراه متألماً؟

فاستدار إليه يسأله بقساوة:

ـ هل أنت متألم دايڤد؟

فهز الصبي رأسه إيجاباً، فسأله:

ـ أين؟

عندما فشل دايڤد في تحديد مكان ألمه، قال له مارك:

ـ أنت خائف... أليس كذلك؟

فانخفضت صرخات دايڤد إلى نحيب منخفض وهو يحدق في وجه مارك الصارم. فدافعت عنه نيكول.

ـ بالطبع خائف... لقد وقع عن مسافة تعتبر عالية بالنسبة لطفل.

ـ سيقع ثانية إذا لم يمسك باللجام.

وقبل أن تعرف نيكول ماذا سيفعل، صفع الجواد على مؤخرته فانطلق إلى الامام... وقفز قلبها معه... أما دايڤد فارتسمت على وجهه نظرة رعب ثم بدأ ينزلق عن السرج ثانية. لكن الجواد المروَّض جيداً توقف... فسارع دايڤد إلى استعادة توازنه... فصاح به مارك.

ـ أمسك باللجام الآن... أمسك به أو سأضرب الحصان ثانية.

فصاح دوغلاس بغضب:

ـ مارك... بالله عليك!

فتجاهل مارك احتجاجه، متقدماً خطوة تهديد نحو الحصان فأسرع عندها دايڤد فأمسك باللجام في يده، رغم ذهوله وصدمته أمّا بكاؤه فتوقف.

ـ دُرْ به حول الحظيرة ببطء.

زالت الآن الخشونة من صوت مارك إلا أن الحزم بقي فيه.

www.elmanar.com

وبعد نظرة مترددة نحو نيكول... أطاعه دايفد. فسار بالجواد، ثم ركض به ودار حول الحظيرة مرات وذلك بأمر من دايفد.

ـ اسرع بجو مرة حول الحظيرة.

فتحت نيكول فمها لتحتج، لكن دايفد قاطعها:

ـ اسمه البرق لا جو.

وكان بالفعل كالبرق يركض حول الحظيرة. بينما دايفد يضحك مسروراً.

سأله دايفد بعد أن توقف الحصان:

ـ أأحسنت عملاً؟

ـ بالتأكيد أحسنت.

حمل دايفد عن السرج إلى الأرض، فحاولت نيكول التقدم نحوه، لكن مارك كان قد اعطاه التعليمات بتبريد الحصان مشياً حول الحظيرة. ثم التفت إلى غلينا:

ـ هل رأيت بعينيك كيف يتم الأمر؟

سرعان ما دفنت الفتاة ذقنها في صدرها عند سماعها السؤال. وشحب وجهها، ودون أن ينظر إلى نيكول أو دوغلاس تقدم إلى ابنته وحملها بين ذراعيه. ثم تقدم متجاهلاً نظراتها المتوسلة نحو جواد نيكول المتوقف في الخارج. ووضعها فوق السرج ثم فك اللجام وصعد خلفها وذراعاه تلتفان حولها لتحميانها، ثم بدأ يقود الجواد مبتعداً عن الحظيرة باتجاه الحقول خلف الأشجار.

بعد ساعتين دخلت غلينا إلى المنزل مسرعة، مشرقة الوجه، تبرق عيناها فخراً... وتصادمت كلماتها وهي تسرع في

كلامها تخبر نيكول ودايفد عن تمكنها من هزم خوفها من الركوب.

ـ قال أبي إنني لا يجب أن أخجل من الخوف. قال إن الخوف من الجياد كالخوف من الظلمة... وعليّ أن أتعلم أن لا شيء فيها يؤذيني. ركب معي مسافة طويلة يحدثني حتى استرخت أعصابي واستعدت ذكرى المرح الذي كنت احسه في الركوب. ثم نزل واكملت الطريق وحدي قليلاً، فقال إنني ما زلت جيدة كما كنت في الماضي وانني مع بعض التمرين... سأتحسن.

كانت ابتسامة نيكول ممزوجة بالذهول من رؤية النشاط والحيوية على وجه الفتاة... لم تذكر قط أن غلينا كانت تكثر الكلام هكذا... وهي لم تنته بعد...

ـ تكلمنا عن أشياء كثيرة أخرى في طريق العودة. قال أبي إنني لم أعد طفلة صغيرة. وانني سأصبح سيدة شابة، وانه حان الوقت لأتوقف عن تجديل شعري... أتظنين أن الأفضل أن أقصه نيكول؟

ـ سأتواعد مع مصفف الشعر وسنرى ما يقترح... لكنني أظن أنك ستبدين جميلة جداً بالشعر القصير.

ـ اوه... أتظنين هذا؟ قلت لأبي إنني نحيلة ضعيفة، فقال إنني قد أكون من النوع الذي لا ينضج جيداً إلا في أواخر سن المراهقة، وعندها سأجعل الجميع يقع صريعاً... هل تتصورين هذا؟ هل يمكن أن أرتدي اليوم فستاناً للعشاء؟ قال أبي إنني سأبدو جميلة في اللون الأزرق الذي يشبه لون عينيّ.

ـ أظنها فكرة جيدة.

ـ تعال معي دايفد... ستساعدني في تمشيط شعري.

راقبت الصغيران يركضان بينما فكرت في ما يفعله اهتمام الرجل بابنته الصغيرة. لطالما احست أن مارك قد يكون فائق السحر والفتنة إذا أراد.

أمام التغيير الذي طرأ على غلينا، وجدت نيكول صعوبة في الاحتفاظ بغضبها منه بسبب الطريقة القاسية التي عامل بها دايفد... خاصة وهو على حق في ما فعله.

● ● ●

١٠ ـ أسد الجبل

لم يعد مارك إلى المنزل إلى أن حلت ساعة الطعام. كان وجهه قناعاً ناعماً يناقض ما قصته غلينا عنه، جذب الكرسي على رأس المائدة وجلس. فسألته نيكول:

ـ ألن تنتظر وصول دوغلاس؟

رد عليها باختصار دون شرح:

ـ لن يأكل هنا.

ظنت نيكول أن لدى دوغلاس خططاً أخرى غير مراقبتهما هي ومارك وهو يعلم كيف تشعر.

ـ كيف حال فرانك؟

ـ استجاب جيداً للاطباء اليوم... وما عادوا يشكون في أنه سيستعيد عافيته.

أحست نيكول بارتياح لقوله هذا، لكنها شعرت أنه وضع به أيضاً الحد للحديث بينهما. وجدت نيكول بدون مشاركة دوغلاس في تناول القهوة، وبدون الولدين انها في صمت مستمر كان يوتر أعصابها. فسألته:

ـ ستذهب إلى المستشفى غداً؟

ـ لا... ستحتاجني المزرعة الآن.

www.elromancia.com

وضع إحدى ذراعيه على ظهر المقعد، ينظر إلى قهوته... فاستولت الحيرة على نيكول... فلرده هذا مغزى ما... عيناه الشديدتا الملاحظة التقطتا نظرتها المتسائلة، فالتوى خط فمه المستقيم، ثم قال بعجرفة باردة:

ـ من الأفضل أن تعرفي، أنني طردت دوغلاس... ولا بد أنه حزم أمتعته وذهب الآن.

ـ طردته؟ لماذا؟ ماذا فعل؟

ـ هذا ليس شأنك.

ـ لكنه سيودّع غلينا ودايفد... بالتأكيد قبل ذهابه!

ـ وأنت... ألا تريدين وداعه؟

ـ ط... طبعاً، دوغلاس كان... كان سيداً مهذباً لطيفاً معي... مهذباً بغض النظر عما تظنه!

فرد ببرود وعذوبة:

ـ إنه رجل... ولا أصدق أنه لم يسرق بضع قبلات.

احمر وجه نيكول بشدة وهي تتذكر قبلة دوغلاس البريئة، لكن مارك بكل تأكيد لن يعتبرها بريئة.

ـ أين سيذهب؟ هل قال ماذا سيفعل؟

فضحك دون مرح:

ـ أليس الأمر غريباً؟ أنت متكدرة لذهابه أكثر منه. عندما قلت له إنني استغنيت عنه بدا مرتاحاً... وبدا لي أن هناك خطة ما بينكما.

ـ ماذا تعني؟

كان صوتها مرتجفاً، تحس بالغثيان لما يلمح إليه فقال:

ـ أرجو ألا تكوني قد خططت للهرب معه... فبإمكاني جعل حياتك بائسة.

غلى غضبها بعنف... فصاحت به:

ـ هل ستكون أكثر بؤساً مما هي عليه الآن؟ أظن ذلك مستحيلاً!

ـ لقد عقدنا اتفاقاً... وستلتزمين به!

ـ وكيف ستجبرني على هذا؟... هل ستحبسني ليلاً؟ هل ستضع حرساً على الباب كلما خرجت؟ أنا لست عبدتك... مارك هاموند ولست مكبلة بالسلاسل معك!

كانت يداها على الطاولة قرب فنجان قهوتها، مشدودتين. لكنه بسرعة البرق أطبق بأصابعه على أحد معصميها، بغضب متقم، ومال نحوها مهدداً:

ـ ستفعلين ما أقوله... وسيحلو لك هذا!

كانت ردة فعلها على عجرفته قاسية لأنها بيدها المتحررة أمسكت فنجان القهوة ورمت السائل الساخن المحرق على وجهه... أرعبتها صرخته المتألمة، فهبت راكضة نحو الباب، تسمع تحطم الأواني الخزفية والكراسي من جرّاء لحاق مارك بها.

ركضت عبر الأبواب إلى الليل المعتم الخالي من نور القمر... فقد حلّ خوفها على سلامتها محل خشيتها من أن تكون قد آذته... لكنها لن تستطيع العودة لتحمل المزيد من اهاناته لها. إصراره الدائم على أن رغباتها ومشاعرها غير ذات قيمة له، جرحها عميقاً أكثر مما جرحتها اتهاماته.

ركضت كالمجنونة تستر نفسها بأشجار السنديان والبلوط. فوصلتها في اللحظة التي سمعت فيها الباب الأمامي يُصفق خلف مارك... خبأتها الأشجار السوداء عن نظره... لكن الظلمة كانت ضدها. فأخذت تتعثر بجذوع الأشجار وجذورها... وراح وجهها يصطدم بالأغصان المنخفضة، وحده ضوء الحظائر كان يتسلل بين الأشجار يرشدها إلى الاتجاه. ما إن خرجت إلى العراء حتى سمعت مارك يندفع بين الأشجار.

ساقاها لم تتوجها وجهة محددة. إذ كان هدفها الوحيد الفرار إلى أي مكان، بعيداً عن غضب مارك وانتقامه. كان نور باحة الحظائر الخارجية يلمع على شكل معدني لكنها لما اقتربت من النور أكثر أدركت أنها شاحنة صغيرة. أطل منها جسم رجل من مكانه وأسرع ليلقاها فارتعبت لأنها ظنته مارك.

ـ نيكول؟

كان صوت دوغلاس المنخفض ممزوجاً بالدهشة والقلق. فرمت نفسها بين ذراعيه تشهق فحضنها دوغلاس وراح يمسح شعرها المشعث عن وجهها:

ـ ما الأمر؟ ماذا فعل لك؟

فهمست بجنون:

ـ لا شيء... وكل شيء. لقد قال لي...

لكن صوت مارك اللاذع حبس عليها كلماتها:

ـ أبعد يديك عن زوجتي تشاندلر!

فرد عليه دوغلاس ببرود وقسوة:

ـ ما عدت أعمل لديك مارك. وما عدت أتلقى منك أوامراً!

تقدم مارك نحوهما، فأبعدها دوغلاس ليحميها بجسده. وقال باللهجة الباردة الهادئة نفسها:

ـ كي تصل إليها، عليك تجاوزي أولاً.

فأحست نيكول بقشعريرة الذعر من رنة صوته المتوحشة. لكن مارك صاح محذراً:

ـ لا تهددني تشاندلر... لقد جلدت بالسوط رجالاً أضخم منك وأقوى.

ـ ستضطر لفعل هذا ثانية... لقد راقبتك طويلاً وأنت تدوس كرامة نيكول، بحذائك الموحل. ولن أبقى مراقباً صامتاً.

أمسكت نيكول بذراعه تمنعه:

ـ دوغلاس أرجوك!

كشّر مارك واشتد ضغط شفتيه:

ـ تبقى صامتاً؟ هل كنت صامتاً عندما احتضنتها وقبلتها؟

فتقدم الرجل الطويل الأسود الشعر خطوة مهددة إلى الأمام، فتخلصت نيكول من يده التي كانت تبقيها خلفه، وسارعت إلى الوقوف أمامه، تضع اصابعها على صدره العريض توقفه، تصيح بغضب ويأس:

ـ توقفا عن هذا! كلاكما!

لكن نظرة سريعة إلى وجهي الرجلين أعلمتها أن توسلاتها لا تجد إلا آذاناً صمّاء... رد عليه دوغلاس:

ـ لولا خوفي من أن تكرهني نيكول في النهاية لقتلتك على قولك هذا.

فضحك مارك بخشونة:

ـ هل ستنكر؟ لقد اعترفت نيكول بأنك قبلتها.

فصاحت نيكول في محاولة لإيقاف القتال بين الرجلين:

ـ لقد قبلني... أجل... مرة واحدة! لكن ليس كما تظن!

أحست تحت يدها بسكون مفاجىء يجتاح دوغلاس... وبدت في عينيه نظرات التفكير وهو يدرس الرجل الواقف أمامه متحدياً:

ـ لماذا تكترث يا مارك بأن رجلاً آخر يجد زوجتك امرأة مرغوبة؟ لم يكن يزعجك من قبل أن زوجتك ألعوبة في أيدي الرجال. ما همّك إن رغبت في نيكول أم أنك تخاف أن ترغب هي فيَّ؟

فاقترب مارك خطوة منذرة بالشر:

ـ ستبقى معي... ومن الأفضل لكما الغاء خطط هربكما كلها فلن أجد صعوبة في معرفة مكانكما مهما فعلتما!

فأصر دوغلاس على تحديه:

ـ ما الفرق عندك بين امرأة وأخرى؟

فقال مارك بصوت منخفض شرير:

ـ ابتعدي عن الطريق نيكول.

فجمعت قواها لتصيح:

ـ لا... لا!

لم يحاول دوغلاس منعها وهي تسرع إلى مارك، لتغرز اصابعها في عضلاته الحديدية...

ـ لن أترككما تتقاتلان!

بحركة خفيفة عادية، تخلص منها بعد أن نظر إليها بغضب، ثم أمسك بكتفيها ساخراً من محاولتها إيقافه... ثم قال ببرود:

ـ لن تنفعك محاولة حمايته.

فضحك دوغلاس بمرارة:

ـ أيها المجنون، الأعمى الغبي... إنها لا تحاول حمايتي... بل حمايتك أنت!

خرج من حنجرة مارك صوت يدل على الازدراء.

ـ هل تتوقع مني أن أصدق هذا؟

أفلتت تنهيدة عميقة من صدر الرجل الآخر... وتراخى توتر الاستعداد للمعركة من عضلاته:

ـ وأخيراً انضممت إلينا نحن البشر مارك... لقد تركت صومعتك المرتفعة وها أنت تعرف الآن معنى بأن تحب شخصاً آخر وإلى درجة تفقدك صوابك.

شهقت نيكول من كلام دوغلاس الساخر... إذ لن تصدق ما يقوله. لكنَّ ازدياد ضغط اليدين الممسكتين بكتفيها، جعلتها ترجع نظرتها المشككة إلى مارك، فإذا بها تلاحظ أن الماً لا يمت للحياة بصلة، يلوح في وجهه القاسي الجامد.

ـ هل هذا صحيح؟

لامست خصره ثم ألصقت جسدها به رغم قساوة اصابعه على كتفيها وأردفت:

ـ اوه... مارك... أرجوك؟ هل هذا صحيح؟ هل تحبني حقاً؟

اختفى القناع فجأة عن وجهه... فنظر بجوع مؤلم إلى

www.elromancia.com

وجهها المرتفع نحوه، ثم سحقها على صدره، حتى كاد يقطع عليها أنفاسها وراح يمسح رأسه وذقنه وخده بشعرها... فكانت مداعبة خشنة من أسد الجبل.

- أجل... أجل... أحبك نيكول! (تأوه بحرارة).

هزت جسدها أمواج متلاطمة من السعادة والصدمة. وبدأت الدموع تتدفق من عينيها، لأنها لم تصدق أن الأمر معقول. وغرقت في حبها فلم تستطع إلا التمتع بقبضة ذراعيه المنتقمة عليها.

دفعها فجأة عنه، متجهاً نحو الأشجار دون أن ينظر إلى الخلف... فصدمها تصرفه ووقفت تحدق فيه مشلولة، ثم ألتفتت بحدة نحو صوت دوغلاس المنخفض:

- لم أكن لأظن أن أحداً قادر على التأثير به. بدونك سيموت نيكول.

فسألته والألم في عينيه:

- وأنت؟ ماذا ستفعل؟

فابتسم بقلق:

- سأعيش... وسأتذكرك من بعيد... فلن تكون لدي ذكرى احتضانك في منتصف الليل.

فهمست:

- لست مضطراً للذهاب.

- بلى... وأنت تعرفين هذا. لقد ادخرت بعض النقود... وأظن أنه يمكنني شراء مزرعة.

- أتمنى لك كل سعادة الدنيا.

فاستدار نحو الشاحنة الصغيرة:

- لقد تركنا مارك لئلا يؤثر على قرارك... فهو يوماً لم يفضل رغبات غيره على رغباته. فلا تعذبيه أكثر من هذا نيكول.

بدأت ساقاها تتحركان إلى الخلف:

- وداعاً دوغلاس...

ركضت نحو المنزل وهي تشعر أن حبها يجعلها تطير... فتحت الباب الأمامي، ثم توقفت وهي ترى الألم الذي شاهدته في عيني مارك:

- كنت أعلم أنك لن تذهبي دون دايفد... فليعطني الله القدرة على تحمل فراقك ثانية.

سمعا صوت تحرك الشاحنة الصغيرة، ثم صوت العجلات تسحق الحصى تحتها، ثم مرت بالمنزل. فقالت نيكول:

- دوغلاس رحل. وأنا لن أذهب معه، ولن أقابله فيما بعد. بل لم أخطط لهذا قط.

- هل تحسبينني غبياً أعمى؟ لقد شاهدتكما ذلك الصباح عندما نزلت لأتناول فطوري، وسمعتك تقولين له إنك تحبينه وإنك لا تأبهين بمال العالم كله! كما شاهدت النظرة الدافئة في عينيه...

- اوه مارك... لا! كنت أقول له إنني أحبك أنت! وما قلته عن المال كان ليعرف أنني أهتم بك غنياً كنت أم فقيراً فطلب تقبيل العروس السعيدة.

ابتعد عنها بازدراء... وهو لا يصدق ما قالته، فأكملت:

ـ اقسم إنها الحقيقة حبيبي. فكيف لي أن الجأ إلى ذراعي رجل آخر بعد تلك الليلة التي نعمنا فيها بحب صادق؟ أنا لا أحب سواك... ألا ترى! لهذا تألمت الليلة عندما اتهمتني بأنني على علاقة مع دوغلاس... فأنا أحبك أنت لا دوغلاس.

ـ لكنك قلت إن الحياة بائسة معي.

أجفل مارك عندما لامست عضلات فكه... وقالت له بنعومة:

ـ أليست الحياة بائسة عندما تعتقد أن من تحبه لا يحبك؟

ـ إنها جحيم.

بينما كان يتلفظ الكلمات، راح يشدها إلى ذراعيه، يحرق شوقه إليها بفمه ويديه وجسده كله... للحظات طويلة بقيا هكذا لا يشعران بالدنيا كلها... ثم ارتد مارك عنها على مضض، وأمسك بوجهها بكل رقة بين يديه... وتمتم:

ـ بعد الطريقة التي عاملتك بها... ليس لي الحق بحبك... لا بد أنك تكرهينني الآن.

فعادت تضغط جسدها أكثر فأكثر إليه:

ـ قلت مراراً ومراراً إنني أكرهك... بل تمنيت في لحظات مجنونة موتك. وعندما شاهدت الطائرة تحترق فاعتقدت أنك قد تقتل، أدركت أنني لا أريد الحياة بدونك. وفجأة لم أعد أهتم لماذا تزوجتني أو لماذا شاركتني فراشك.

أحست بارتجاف جسده:

ـ لم أكن أظن أنني قادر على الإحساس بأكثر من عواطف سطحية. لكن منظر فرانك عالق في النار بدد ذلك الوهم. وعندما دخلت المستشفى وجلست قربي تمسكين يدي دون أن تتفوهي بكلمة، علمت أنك ستكونين موجودة عندما

احتاجك... أحسست... أحسست أنني أحط مخلوق مشى على وجه البسيطة. وفهمت عندئذ لماذا كان فرانك يتمتم باسم زوجته عندما أخرجته من الحطام... فقد أحسست بالحاجة نفسها إلى أن تكوني معي... ووجدتك معي.

فسألته بنعومة:

ـ وجانيت؟

نظر إلى عمق عينيها اللوزيتين.

ـ لم أقابلها إلا في المزرعة حيث تعرفين وفي المستشفى فقط... لم أكن بحاجة لأراها... لأنني كنت أجد السعادة مع زوجتي المتمنعة.

دفنت رأسها في صدره:

ـ أحبك.

رفعت رأسها إلى وجهه فوجدت التعجرف والكبرياء قد تلاشيا فحل محلهما اللطف والتواضع... وأصبح التحفظ والعزلة أمر من الماضي. وابتسم لها:

ـ عليَّ أن أتعلم الكثير منك. فلا أعرف كيف أكون أباً وزوجاً صالحاً. أريد أن أعرف ابنتي أكثر. فخجلها هذا أنا سببه. فالآن فهمت العذاب الذي تشعرين به عندما تعرفين أن من تعبدينه، لا يهتم بك.

فهمست:

ـ إنه بهذه البساطة حبيبي... كل ما عليك فعله هو أن تضم ابنتك إلى دائرة حبك.

ـ ودايفد كذلك... وكل الأطفال الذين سنرزق بهم.

● ● ●